لأول مرة بالعربية

مذكرات خير الدين بربروس

ترجمة: د. محمد دراج







الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك : 7-1-9963-9961-978

رقم الإيداع : 2010-2857

تنضيد وتصميم : شركة الأصالة للنشر

شركة الأصالة للنشر والتوزيع

الجزائر العاصمة

تلفون : 21.762897 فاكس : 21.762157

جوال : 560.153010

E-mail : elassalah@hotmail.com

ELASSALA EDITION & DISTRIBUTION ALGER - ALGERIE

شكر وتقدير

إنّ إخراج هذا الكتاب قد استهلك عشر سنوات من عمر الزّمن لكي يصدر في شكله الحالي بعد أن تضافرت على دفعه إلى الوجود جهود الكثير من الأصدقاء والزملاء الجزائريين والعرب والأتراك على حد سواء..

وعليه فإنني مدين هؤلاء جميعا بأفكارهم واقتراحاتهم وملاحظاتهم ودعمهم المعنوي والمادي الذي أسهم في نشره بأقل قدر ممكن من الأخطاء..

فإلى هؤلاء جميعا أهدي هذا الجهد المتواضع..

مقدّمة المترجم

كم هو جميل أن يرى المرء حلمه يتحقق بعد سنوات طويلة من الانتظار والترقب، يقضيها متقلبا بين الخوف من الفشل والأمل في أن يرى بريق النجاح يلوح في الأفق ..

كان هذا الإحساس يراودني وأنا أخط الكلمات الأولى التي قمت بترجمتها من هذا الكتاب المتميز الذي أملاه البحار العظيم خير الدين بربروس على زميله ورفيقه في الجهاد البحري الشاعر الأديب سيد علي المرادي.

إن هذا الكتاب يستحق عن جدارة بأن يوصف بأنه متميز في موضوعه وأسلوبه وغايته .. فهو متميز في موضوعه لكونه يمثل رواية حية، أملاها خير الدين بربروس على رفيقه المرادي، بناء على أمر من السلطان سليمان القانوني. بغية التعريف بالخطوات التي سار عليها الإخوة بربروس منذ خروجهم من جزيرة ميديلّي MİDİLLİ، إلى أن تمكنوا من حكم الجزائر وطرد الإسبان منها، والتصدي لحملاتهم على سواحل الجزائر، وإنقاذهم لآلاف المهاجرين الأندلسيين من مذابح الإسبان.

وأما تميزه من حيث الأسلوب فإن المذكرات قد كتبت بلغة سلسة، يفهمها حتى من ليس لديه أية فكرة عن الوجود العثماني

في شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة. بل يفهمها حتى من لم يكن يملك أدنى خلفية تاريخية تتعلق بموضوع الكتاب. ذلك لأن خير الدين لم يكن عالم دين ولا مفكرا ولا مؤرخا ولا كاتبا ولا فيلسوفا؛ بل كان مجاهدا خرج يطلب إحدى الحسنيين: النصر على الأعداء أو الاستشهاد في سبيل الله، حسبما صرح بذلك عند أول نزوله مع أخيه عرّوج في جزيرة جربة بتونس. حيث قال خير الدين لأخيه: «ما دام الموت هو نهاية كل حي، فليكن في سبيل الله».

وأما تميّزه من حيث الغاية فإن القارئ سوف يلاحظ بأن خير الدين -بإملائه لهذه المذكرات- كان يهدف إلى بيان كل الحوادث التي شارك في صنعها بنفسه أو أمر بها أو تمت تحت قيادته وإمرته. كما يلاحظ في حديثه الإحساس بالحماسة المتدفقة، والتفاعل الشديد مع حيثيات الأحداث.. لقد كان بارعا في شدّ القارئ إليه وجعله يشاطره مشاعره وأحاسيسه، وهو يخوض معاركه دفاعا عن الجزائر أو انتقاما من الإسبان على إثر غارة قاموا بشنها على إحدى سواحل تونس أو الجزائر. كما يدفعه -أي القارئ- إلى مشاطرته الإحساس بنشوة النصر، عندما يصف عودته من الغزو وهو يجر سفن الأعداء المثقلة بالغنائم، التي يسارع فور نزوله بمرسى الجزائر أو جيجل أو تونس، بدفع خمسها لخزينة الدولة، ثم يخص الفقراء والأوقاف بقسم كبير منها، قبل أن يوزع على رجاله حصصهم، جاعلا من نفسه آخر

من يأخذ نصيبه.

إن القارئ ليشعر بأن صاحب المذكرات قد نجح إلى حد بعيد في استفزازه، ودفعه إلى الانحياز إليه، وهو يروي يوميات الحرب، ودفاعه عن كل المواقف التي وقفها نحو خصومه ومناوئيه في الجزائر وأعدائه في الخارج. فهو بذلك لم يكن يسلك مسلك المؤرخ بحياديته ومنهجيته الصارمة في رواية الأحداث، بل كان يسلك مسلك المحامي عن حق مغصوب، جعل استعادته هدفا وغاية يعيش ويموت من أجلها.

ونرى بوضوح تأثير الخطاب الديني على الأسلوب الذي كتبت به المذكرات، كتعبير لا شعوري عن مدى ما وصل إليه الصراع الدائر -يومئذ- بين العالمين الإسلامي، ممثلا في الدولة العثمانية ومن كان منضويا تحت لوائها، وبين العالم المسيحي، ممثلا في إسبانيا ومن كان تحت قيادتها أو حليفا لها. ولأجل ذلك نلاحظ عبارات: الجهاد والشهادة ووصف العدو وكل من ينتمي إليه أو يلوذ به بأوصاف الكفر والنفاق تتكرر على مدى صفحات هذه المذكرات.

وقد آثرت الإبقاء على هذه التعابير كما وردت في أصلها التركي، لكي يتمكن القارئ من معايشة الأحداث وأجوائها المشحونة كما لو كان معاصرا لها. ولم أحاول التدخل في صياغتها أو التخفيف من خشونتها، لكونها تعكس ثقافة العصر وذهنيته

السائدة ونمط تفكير المسلمين ونظرتهم إلى أعدائهم، بسبب جرائم القتل والسلب والاختطاف التي قام بها الإسبان في وهران وبجاية وتونس وطرابلس الغرب والأندلس، وشاعت أخبارها في سائر أنحاء الجزائر.

لقد كنت -ولا زلت- مقتنعا بأن هذا الكتاب مرآة للعصر الذي كتب فيه بقيمه ومفاهيمه وطبيعة العلاقات التي كانت تربط الناس. ولم يكن لي من الترجمة سوى نقل النص الأصلي بأمانة إلى القارئ العربي، لينظر إلى الأحداث والأشخاص والممالك التي كانت سائدة، بنفس المنظار الذي كان ينظر به خير الدين بربروس ومن عاصره لأحداث ذلك العصر من خلال المعايشة اليومية لها في البر والبحر.

وعليه؛ فإنني التزمت -منهجيا- بأن لا أقوم بأي حذف أو زيادة أو تحوير للنص الأصلي عن مساره إلا بالقدر الذي تفرضه الصياغة العربية للنص المترجم، وذلك بإضافة روابط لم تكن موجودة في النص التركي، أو بالتقديم والتأخير في تركيب الجمل، بحذف الضمير أو استبداله بالاسم الظاهر أو العكس، ونحو ذلك من التراكيب العربية التي تهدف إلى البناء السليم للنص العربي.

وأما العناوين التي يلاحظها القارئ في هذه المذكرات، فهي لم تكن موجودة في النسخ المخطوطة، وإنما قام الأستاذ أوزتونا

ÖZTUNA[1] بإضافتها، تسهيلا للقارئ على فهم الأفكار الجزئية التي تضمنتها المذكرات. وقد صرح هو بذلك في مقدمة الكتاب.

والمؤكد هو أن هذا الكتاب تم إملاؤه باللغة التركية العثمانية في عصر السلطان سليمان القانوني وبأمر منه، غير أننا لا نعرف يقينا تاريخ كتابته، ولا مكان وجود النسخة الأصلية التي أملاها خير الدين بربروس. إلا أن للكتاب نسخ عديدة متناثرة في مختلف مكتبات إسطنبول والفاتيكان وبرلين والقاهرة ومدريد وباريس ولندن. وتعد نسخة الفاتيكان أقدم نسخة للمذكرات.

وقد نشر الكتاب عدة مرات باللغة التركية الحديثة، من طرف المؤرخ والصحفي التركي يلماز أوزتونا YILMAZ ÖZTUNA الذي قام بتهذيبه ونشره لأول مرة في مجلة الحياة التاريخية : HAYAT TARİHİ MECMUASI التي كانت تصدر في إسطنبول في الستينيات من القرن الماضي، قبل أن يقوم بجمعها ونشرها في كتاب مستقل سنة 1989. وكان الكاتب التركي أرتوغرول دوزداغ ERTUĞRUL DÜZDAĞ قد قام قبل ذلك بنشرها في سنة 1975 بعد تحويلها إلى رواية ملحمية وذلك باسم: BARBAROS HAYREDDİN PAŞA'NIN HATIRALRAI

---

(1) ناشر المذكرات باللغة التركية الحديثة بعد تهذيبها وحذف الديباجات الطويلة والتعابير التي لم تعد مستعملة اليوم.

أي: «مذكرات بربروس خير الدين باشا».

ثم قامت بعد ذلك قيادة البحرية التركية بتهذيب ونشر هذه المذكرات سنة 1995 باسم: GAZAVÂT-I HAYRETTİN PAŞA أي: «غزوات خير الدين باشا». وذلك بعد إدخال تحويرات كبيرة على النص الأصلي أفقدته أصالته وروح العصر الذي كتبت فيه.

وابتداء من القرن التاسع عشر تمت ترجمة الكتاب إلى لغات عديدة، منها: المجرية[1] والإيطالية[2] والإسبانية[3]. وصدر بأسماء مختلفة وبتعديلات كبيرة، منسوبا إلى غير مملية أو كاتبه وإنما باسم: مؤلف مجهول تارة أو بأسماء من قام بترجمته والاقتباس منه تارة أخرى. فغدت تلك النسخ المترجمة أو المقتبسة وكأنها كتب أخرى لا صلة تربطها بنسختها الأصلية، سوى احتفاظها

(1) ترجم إلى المجرية من طرف جوزيف توري Joseph Thury باسم: Török Törtenitirok ونشر في بودابست سنة 1896 في جزئين.

(2) ترجمه إلى الإيطالية الحديثة أستاذ اللغة والأدب التركي بجامعة نابولي البروفيسور ألدو غلوطّة Aldo Galotta ونشره باسم: «Le Gazavât di Hayerrdin Barbarossa, Studi Magrebini Üniverstario Orientale, III, Napoli 1970, s. 79-180».

(3) ترجم إلى الإسبانية الحديثة من طرف لوبيز غومارا F. Lopez Gomara باسم: «Cronica de los Barbarajas».

بسير الأحداث التي تضمنتها تلك المذكرات.

ونظرا لأهمية هذه المذكرات في الدراسات التاريخية العثمانية فإنها قد حظيت باهتمام خاص لدى المؤرخين والباحثين الأتراك(1) والغربيين(2). إذ اعتمد عليها جُلّ المؤرخين الأتراك الذين جاءوا

---

(1) كما فعل المؤرخ الموسوعي التركي كاتب جلبي في كتابه: «تحفة الكبار في أسفار البحار» حيث صرح بأن ما ينقله من الحوادث التي جرت في غرب البحر المتوسط تستند إلى مذكرات خير الدين بربروس.

(2) يتجلى اهتمام الباحثين الغربيين بالمذكرات في ترجمتهم لها إلى المجرية والإيطالية والإسبانية في وقت مبكر، وذلك لكونها تسلط الضوء على محطات مهمة من تاريخهم في عصر بربروس. كما اعتمد عليها المؤرخ الألماني جوزيف هامر في كتابه الموسوعي الذي كتبه في أكثر من عشرة أجزاء وسماه: التاريخ العثماني، وترجم إلى التركية ونشر باسم: OSMANLI TARİHİ. كما كتب عنها أستاذ اللغة والأدب التركي في جامعة نابولي البروفيسور الإيطالي: ألدو غلوطّة Aldo Galotta عدة مقالات ونشر المذكرات في شكلها الأصلي وعلق عليها تعليقات هامة جدا. قبل أن يقوم بترجمتها إلى الإيطالية الحديثة كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل. وأما المؤرخون والباحثون العرب فلا أعلم أحدا اهتم بها أو أشار إليها أو اعتمد عليها في تأريخه للمرحلة الأولى من الوجود العثماني بالجزائر سوى ابن رقية التلمساني في كتابه: «الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة». حيث لاحظت أنه اعتمد بشكل شبه

-

بعد بربروس في التأريخ للمرحلة التي واكبت الدخول العثماني إلى الجزائر، بالإشارة إليها تارة وبتجاهل ذلك تارة أخرى[1].

كلي على المذكرات في نقله للأحداث المتعلقة بالجزائر حيث نقل الأحداث المتعلقة بعصر خير الدين بربروس دون أن يشير إلى ذلك على عادة أهل عصره الذين لم يكونوا يهتمون بذكر مصادر مؤلفاتهم.

(1) مثلما فعل المؤرخ التركي رضا سيفي في كتابه: «خير الدين بربروس» الذي لم يصرح بأنه استقى معلوماته من مذكرات هذا الأخير. وبمقارنة بسيطة بين ما جاء في كتاب رضا سيفي وما جاء في المذكرات يخرج بانطباع أن سيفي قام باختصار المذكرات وصياغتها من جديد. ونفس الشيء فعله المؤلف المجهول الذي تُرجم كتابه من التركية إلى العربية باسم: «غزوات عروج وخير الدين» ونشره عبد الكريم عبد القادر بالجزائر سنة 1934 وترجم إلى الفرنسية من طرف: من ساندر رانغ **Sander Rang** وفرديناند دنيز **Fernand Denis** وذلك باسم: **Fondation de la Régence d'Alger, Histoire des Barbarousses,Chronique Arabe du XVI^em^ siécle, Expédition de Charles-Quint, II. Paris 1837**

ومن الدراسات التي نشرها الباحثون الأتراك والغربيون حول المذكرات نذكر على سبيل المثال:

N. Âsim, Gazavât-ı Hayreddin Paşa, Tarihi-i Osmânî Encumeni Mecmûası, 1-4 s. 233-238; 1.10. 1326-1910

H. De Grammon, Le R'azuat est-il L'Oeuvre de kheireddine

محتوى المذكرات وموضوعها

وللوهلة الأولى يتوقع القارئ أن يكون الكتاب مجرد سيرة ذاتية يتحدث فيها خير الدين بربروس عن نفسه وعائلته وأولاده وحياته الخاصة، كما هو معهود في كتب السيرة الذاتية. غير أن متصفح المذكرات يلاحظ خلوها بشكل شبه كامل من الإشارة إلى الأمور الشخصية والعائلية المتعلقة بخير الدين، إلا ما كان منها متعلقا بسير الأحداث التي عاصرها. بل إن صاحب

-

Barberousse, Villeneuv sur Lot 1873.

H.G. Yurdaydın. Murâdî ve Eserleri, Belleten, XXVII-107, Ankara, VII.1963, s. 453-466.

Svat Soucek, Sources dealing With the Barbarossa Brothers, Güne-doğu Avrupa Araştırmaları Dergisi, II 1972, 63-72

Aldo Galotta, Gazavât-ı Hayerddin Paşa di seyyid Murâdi, Studi Magrebini, XII, Napoli 1983.

Mehmet Özkan, Barbaros hayrettin Paşanın Türk denizcilik tarihindeki yeri.

(رسالة ماجستير في التاريخ الحديث بجامعة غازي، تركيا).

Gülşah Oktay, : 18.Yüzyıla ait Bir Barbaros Hayrettin Paşa Gazavat namasi üzerinde sentks incelemesi .

(رسالة ماجستير في الأدب الإسلامي التركي بجامعة سلجوق، تركيا).

المذكرات يشرع مباشرة في سرد الأحداث التي جرفته وأخوته لاقتحام عالم الجهاد البحري"[1]. ويستمر في سرد الأحداث وتطورها انطلاقا من جزيرة ميديلّي -مسقط رأس الإخوة بربروس- ليتوقف قليلا في شبه جزيرة رودس، حيث كان أروج رئيس أسيرا عند فرسان القديس يوحنا، لينتقل بعد ذلك إلى سلطان مصر ودخول أروج في خدمته، قبل أن ينتهي به الأمر إلى الرسوّ في جزيرة جربة، حيث يلتحق به أخوه خير الدين. فيقرران الاتصال بالسلطان الحفصي في تونس الذي أقنعاه بأن يسمح لهما في الرسوّ في ميناء حلق الوادي، ويتخذاه

---

(1) ضربت صفحا عن استعمال تعبير القرصنة لأنها تعني لصوصية البحر، والقراصنة ليسوا سوى لصوص وقطاع طرق ومغامرين، يهدفون إلى الاستيلاء على الأموال والممتلكات دون أي اعتبار ديني أو سياسي. والمتأمل في العمليات العسكرية التي كان يقوم بها البحارة العثمانيون وغيرهم، يلاحظ أنها كانت تهدف إلى الدفاع عن المسلمين في السواحل الإسلامية والمساهمة في إنقاذ المسلمين في الأندلس، والانتقام من سفن وسواحل الدول والممالك المعادية. فهي إذن عمليات عسكرية يقوم بها أفراد مسلمون قبل أن ينتظم ذلك ليتحول إلى حالة حرب مفتوحة على كل الجبهات بين الدولة العثمانية انطلاقا من الجزائر ثم من تونس وليبيا من جهة، وبين إسبانيا وغيرها من الممالك الموالية لها من جهة ثانية.

قاعدة لجهادهما، على أن يدفعا إليه خمس ما يحصلان عليه من الغنائم ويبيعا ما زاد عن حاجتهما في أسواق تونس.

ومن تونس تتلاحق عمليات الجهاد البحري، لتبلغ ذروتها بالاستقرار في الجزائر وما رافقها من ثورات متتالية تولى قيادتها والتحريض عليها الزعماء المحليون، بتحريض من الإسبان وسلاطين بني زيان في تلمسان وبني حفص في تونس. وخلال ذلك كان خير الدين يسرد بتفصيل دقيق غزواته البحرية ضد السفن والسواحل الإسبانية أو التابعة لها والمتحالفة معها، وكذا حملات الإسبان على المراسي الجزائرية.

ولم يغفل خير الدين الحديث عن تطور علاقاته بالدولة العثمانية، وإعلان تبعيته للسلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين، وما واكب ذلك من تقارب في الرؤى والمواقف السياسية. الأمر الذي أفضى إلى تتويج ذلك الولاء بتعيين خير الدين قائدا عاما للأسطول العثماني حاملا لقب قبطان داريا، وهو أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية. فأثبت خير الدين أهليته وكفاءته العالية في قيادة الأسطول العثماني بتحقيقه انتصارا باهرا في معركة بروزة **PREVEZE** على السواحل الإيطالية سنة 1538. تلك المعركة التي كانت بين الأسطول العثماني والتحالف الصليبي بقيادة البحار الجنوي أندريا دوريا. فكان من أثر ذلك الانتصار أن تمكن العثمانيون من فرض

سيطرتهم على البحر المتوسط أكثر من ثلاثين عاما.

وأسهب خير الدين في الحديث عن محاولة الإمبراطور شرلكان غسل عار هزيمته في بروزة بتجريد حملة كبيرة تحت قيادته لغزو الجزائر واحتلالها سنة 1541 مستغلا غياب خير الدين، ليمنى مرة أخرى بهزيمة منكرة على يد حسن باشا بن خير الدين الذي كان نائبا عنه في الجزائر. هذه الهزيمة التي دفعت الملك الإسباني إلى اعتزال السياسة، والاعتكاف في أحد الأديرة ليموت بعد ذلك ببضعة أشهر من شدة القهر، حسبما أشار إلى ذلك خير الدين في مذكراته.

بعد هذه الحملة بقليل تتوقف المذكرات تقريبا عند سرد الحوادث التي تلتها، لأن خير الدين كان قد عاد إلى إسطنبول ولم يرجع إلى الجزائر سوى مرة واحدة. وذلك سنة 1543 ليقود منها حملة بحرية على فرنسا إلا أنه لم يشر إليها في مذكراته لأنه كان قد فرغ من إملائها حسبما يبدو[1].

---

(1) في سنة 1543 قاد خير الدين حملة على فرنسا بناء على استنجاد ملكها فرنسوا الأول بالعثمانيين، وذلك لتحرير بلاده من الاحتلال الإسباني. وتوجت هذه الحملة بطرد الإسبان تماما من الأراضي الإسبانية.

القيمة التاريخية لهذه المذكرات

لا شك أن يهذه المذكرات تعد في غاية الأهمية من حيث قيمتها التاريخية، باعتبارها مصدرا أصليا وأساسيا لتلك المرحلة. فهي شهادة خير الدين على أحداث عصره التي صنعها بنفسه، وساهم في صناعة قرارات الحرب والسلم بين الدولة العثمانية وإسبانيا ومن حالفها من الممالك الأوربية. وبصرف النظر عن العنصر الذاتي في هذه المذكرات وغياب عنصر الحياد في رواية الأحداث، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميتها الكبيرة في نقل الكثير من الجزئيات الدقيقة التي قلما نجدها في المصادر التاريخية الأخرى.

ففضلا عن يوميات الأحداث وتفاصيلها الدقيقة التي رواها خير الدين في مذكراته، نلاحظ أنها اشتملت على معلومات تاريخية تعد نادرة جدا لا تكاد توجد في غيرها من المصادر العربية أو التركية أو الأجنبية التي أرخت لتلك المرحلة. فمنها على سبيل المثال: تلك التي يتحدث فيها عن رغبته في غزو أمريكا واستئذانه للصدر الأعظم إبراهيم باشا في ذلك عندما قابله في حلب[1]، وتهكمه بأندريا دوريا حينما علق على محاولته احتلال

---

(1) انظر الصفحة 168.

الجزائر بقوله بأنه واهم في ظنه أن الجزائر مثل العالم الجديد[1]، وأنه بإمكانه أن يبيد الجزائريين ويقضي على الإسلام مثلما فعل أسلافه مع الهنود الحمر، مما يعطي للقارئ انطباعا بأن خير الدين كان على دراية بالمجازر التي اقترفها الإسبان في أمريكا المكتشفة حديثا، وأن البلاد التي وصلوا إليها إنما هي قارة جديدة بينما الإسبان كانوا لا يزالون يتوهمون بأنهم قد وصلوا إلى الهند.

اشتملت المذكرات أيضا على بيان أحد أهم أهداف حروب الدولة العثمانية ضد إسبانيا، وهي رغبة السلطان سليمان القانوني في غزو إسبانيا وفتحها من جديد[2]. حيث استدعى خير الدين إلى إسطنبول لأجل هذه الغاية لاستشارته في هذا الموضوع، قبل أن يغير رأيه ويستبدله بتعيين خير الدين بربروس قائدا عاما للأسطول العثماني.

كما يفند خير الدين في هذه المذكرات المقولة التي ما فتئ الباحثون الغربيون يشيعونها، والمتمثلة في أنه فرض نفسه حاكما وسلطانا على الجزائر، بينما واقع الأحداث -حسبما- ورد في المذكرات يبين بأن خير الدين إنما قبل ولاية الجزائر بناء على

---

(1) انظر الصفحة 206.

(2) انظر الصفحة 165.

توسلات ملحة وعديدة من أعيان وعلماء مدينة الجزائر وغيرها ممن كانوا يرسلون إليه الوفود يرجونه أن يقدم عليهم ويتولى إدارتها بنفسه"(1). ذلك لأن الأهالي لم يكونوا يرضون بالخضوع لأحد سواه. فقد رفضوا ولاية ابن القاضي في الجزائر، مثلما رفض أهالي تلمسان قبلهم ولاية سلطانها الزياني الذي تحول إلى ألعوبة في يد الإسبان. فلم يكن لخير الدين من خيار سوى الخضوع لضغوط العلماء والأعيان والقبول بأن يكون حاكما على الجزائر. وهذه الشهادة بلا شك تُخرس الأصوات التي لم تتوقف عن ترديد -دون خجل- إسطوانة الاستعمار التركي للجزائر!!!

كما يذكر خير الدين في مذكراته تفاصيل دقيقة جدا عن طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية -التي كان يمثلها في الجزائر- والقيادات الدينية والسياسية في الجزائر وكيف كان يتم التعاطي مع كلا الفئتين خلال الأزمات. ويورد بشكل صريح تأرجح موقف الأهالي من الأتراك بين الولاء والعداء، ومدى تأثرهم بالدعاية التي كان يشيعها خصومه من الزعماء المحليين بغية إثارة الناس ضده. وهذه التفاصيل بلا شك تعد في غاية الأهمية بحكم معاصرة خير الدين لها من جهة، ومباشرته لها من جهة

---

(1) انظر الصفحة 119-120.

ثانية؛ الأمر الذي أعطى للمذكرات أهمية مضاعفة وأكثر خصوصية لتعلقها بالتاريخ المحلي خلال المرحلة الأولى من الوجود العثماني بالجزائر.

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أسجل أسفي الشديد على سبق الباحثين الغربيين إلى اكتشاف هذه المذكرات في وقت مبكر جدا وترجمتها إلى لغاتهم، بينما تأخرنا -نحن الباحثين العرب عامة والجزائريين خاصة- عن ذلك بالرغم من كونها تسلط الضوء على الكثير من المحطات الغامضة في تاريخنا خلال المرحلة العثمانية، وتجيب على العديد من التساؤلات التي أكثر الباحثون الغربيون وأشياعهم حولها اللغط.

هذا؛ وأرى أنه من الضروري أن ألفت انتباه القارئ إلى أن إخراج الكتاب في شكله الحالي اعترته العديد من الصعوبات والصوارف أخّرت صدوره عشر سنوات. ولم يكن في وسعي أن أقدمه للقارئ العربي والجزائري في شكل يقلل من قيمته قبل أن يستقر الأمر على إصداره في طبعتين.

الأولى: موجهة للقارئ العادي غير المتخصص الذي يهمّه أن يتعرف على شخصية خير الدين بربروس من خلال مذكراته، وعلى تاريخ الجزائر من خلال رواية صانع أحداثها، كما يهمّه أن يقرأ كتابا مترجما من اللغة التركية إلى العربية بقلم باحث جزائري.

الطبعة الثانية: موجهة للقارئ المتخصص والباحث المهتم بالدراسات التاريخية المتعلقة بالمرحلة العثمانية في الجزائر، والذي يعنيه التوقف عند الحقائق التي اشتملت عليها المذكرات، ومقارنتها بما ورد في غيرها من المصادر.

وعليه فطبيعي أن تقتصر هذه الطبعة على الحد الأدنى من التعليقات والهوامش التي لا تشوش على القارئ اندماجه واسترساله مع الأحداث. وكلي أمل في أن أتمكن من إصدار الطبعة العلمية في وقت لاحق مذيَّلة بكل ما هو ضروري من توضيحات وتعليقات وهوامش تساهم في إزالة اللَّبس عما ورد في المذكرات من غموض يتعلق بالأحداث أو الأشخاص.

وأخيرا آمل أن أكون قد وُفِّقتُ إلى إخراج الكتاب بلغة عربية سلسة وخالية من التكلف والإغراب، وبأقل قدر ممكن من الأخطاء التي يمكن أن يزيغ عنها البصر خلال التصحيح والمراجعة. ودون أن يشعر القارئ بأنه يعبر من النص التركي إلى النص العربي على جسر من الألفاظ والتعابير المرهقة لعقله.

الجزائر: 27 رمضان 1432هـ
الموافق لـ: 06 سبتمبر 2010

د. محمّد درّاج
للتّواصل: derradj2010@gmail.com

19

المذكّرات

بدأت إملاء مذكراتي بأمر من السلطان سليمان القانوني

في أثناء اتصالي بالسلطان سليمان خان بن سليم خان، ورد عليّ فرمان[1] FERMAN سلطاني، هذا نصه:

«كيف خرجت أنت وأخوك عرّوج[2] URUÇ من جزيرة ميديلّي MİDİLLİ، وفتحتم الجزائر؟ ما الغزوات التي قمتم بها في البرّ والبحر حتى الآن؟ دوّن كل هذه الحوادث بدون زيادة أو نقصان في كتاب، وعندما تنتهي أرسل إليّ نسخة لأحتفظ بها في خزانتي».

عندما استلمت هذا الأمر، استدعيت أحد أرباب القلم، زميلي في الكثير من غزوات البحر «المرادي»، وأخبرته بفرمان السلطان فبدأنا على الفور في التدوين، أنا أملي و«المرادي» يكتب:

(1) فرمان : أمر سلطاني.

(2) ورد اسمه في جميع المصادر والمراجع التركية باسم أوروج -بالتاء المدغمة في الشين بحيث يقرأ: أوروتش- غير أنني آثرت تعريبه وفق ما هو معروف في المصادر والمراجع العربية منعا للّبس وليس إقرارا بالخطأ الشائع.

استقرار أبي يعقوب آغا في ميديلّي وزواجه بأمّي

عندما فتح السلطان محمد الفاتح جزيرة ميديلّي أمر الأتراك بالاستيطان في الجزيرة. فكان أبي أحد المستوطنين الأوائل، وابنا لأحد فرسان السباهية[1] SİPAHİ كما كان هو نفسه سباهيا أيضا، وكانت له في منطقة واردار VARDAR المجاورة لسلانيك SELANİK أرض إقطاع، وهبت له بأمر من السلطان محمد الفاتح عندما استقر بالجزيرة.

وهكذا، فعندما انتظمت أمور والدي من جديد تزوج إحدى بنات أهالي الجزيرة. كان أبي أنيقا شجاعا أنجبت له أمي أربعة أخوة هم: إسحاق الذي كان أكبر إخوتي ثم أخي

---

(1) السباهي : في المراجع العربية تدعى : «الصبايحية» وهو خطأ. وهو اصطلاح يطلق على الفرسان الذين كانت تجندهم الدولة العثمانية مقابل استفادتهم من أراضي الإقطاع التي كانت تمنح لهم لقاء دفع ضريبة الخراج لخزينة الدولة، فضلا عن إلزامهم بالمساهمة في تحمل نفقات الحرب والاشتراك في الحرب بنفسه عند الحاجة إليه. انظر :

M.Zeki Pakalın, Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, İstanbul 1993, 3/92.

عرّوج ثم أنا خضر ثم إلياس، مدّ الله في عمر الجميع ورزقهم النصر.

كان أخي إسحاق مقيما في قلعة ميديلّي، أما أنا وأخي عرّوج فقد كنّا مولعين بركوب البحر. وعليه فقد اقتنى أخي عرّوج سفينة وانطلق بها للتجارة في البحر، بينما اتخذت أنا مركبا ذا ثمانية عشر مقعدا.

كنا في البداية نتنقّل بين سلانيك وأغريبوز AGRIBOZ، نجلب منها البضاعة ونبيعها في ميديلّي، إلا أن أخي عرّوج لم يقتنع بهذه الأسفار القريبة. إذ كان يرغب في الذهاب إلى طرابلس الشام. وذات يوم غادر ميديلّي مع أخي الصغير إلياس متوجّهين إلى طرابلس.



قلعة ميديلّي (تقع في جزيرة ليسبوس باليونان)

وقوع أخي عرّوج أسيرا في أيدي كفار جزيرة رودس ومكوثه عندهم بضع سنين

لم يتمكّن أخي عرّوج من الوصول إلى طرابلس الشام، فقد صادف في طريقه سفن فرسان جزيرة رودس RODUS واشتبك معهم في معركة كبيرة سقط على إثرها أخي إلياس شهيدا ﷺ، بينما استولى الكفار على السفن وأخذوا عرّوج أسيرا بسفينته إلى رودس مقيدا بالسلاسل.

عندما وصل الخبر إلى ميديلّي حزنت وبكيت عليه كثيرا، لكنني شرعت في الحال أبحث عن سبيل لإنقاذ أخي.

كان لي صديق كافر يدعى غريغو KRİGO يقوم بالتجارة مع جزيرة رودس أخذته معي في سفينتي وقدمت به إلى بودروم BODRUM، وقلت له:

«اليوم تتبين الصداقة خذ هذه الثمانية عشر ألف أقجة * AKÇE وأعنّي على إنقاذ أخي. اذهب إلى رودس وانظر الأمور هناك، وسوف أنتظرك في بودروم».

---

* أقجة : عملة فضية كانت تستعمل في الدولة العثمانية، يقابلها الدرهم في ذلك العصر. انظر: المصدر السابق، II 31.

- غريغو: «على الرأس والعين» قال ذلك ثم مضى إلى رودس حيث قابل أخي عرّوج رئيس هناك وقال له:

«أخوك خِضر يسلّم عليك ويدعو لك كثيرا، وهو في غاية الحزن عليك بسبب وقوعك أسيرا في أيدي الكفار، ولا يكاد يكف عن البكاء عليك ليلا أو نهارا. وقد أرسلني إليك وهو الآن في بودروم ينتظر أخبارا سارة عنك».

عندما سمع عرّوج ذلك من غريغو بكى من شدة الفرح وقال له:

«سلّم على أخي خضر يجب أن لا يعلم أحد سبب قدومك إلى الجزيرة وسنلتقي في أول فرصة تتاح لنا».

كان عرّوج رئيس يعرف في رودس رجلا مشهورا يدعى سانترلو أوغلو SANTURLUOĞLU، كان يأتي أحيانا لرؤية أخي ويتفقد أحواله، قال له أخي يوما:

«إنّ فرسان رودس لن يبيعوني لأخي خضر، لكنهم ربما يبيعونني لك. فإن هرّبتني من الجزيرة. فإنني سوف أؤدي لك دَيْنك في المستقبل».

- سانترلو أوغلو:

«بكل سرور، إذا باعوك فإنني سأشتريك. لكني إذا طلبت منهم ذلك مباشرة فإنهم سيشتبهون في الأمر. فالأفضل أنك عندما تنزل إلى المدينة ذات يوم تظاهر بمرورك على دكاني،

وإيّاك أن تنظر إلى الدكان مباشرة لئلا يعلموا بأني أعرفك. سأتظاهر بأني أراك صدفة عندما تكون مارّاً وأعبّر لهم عن إعجابي بك، وإنّي لأرجو أن يبيعك الفرسان لي».

عندما سمع عرّوج هذه الكلمات سُرّ كما لو صار طليقا، كم كانت حياة الأسر أليمة بالنسبة له.

في أحد الأيام كان سانترلو أوغلو جالسا أمام الدكان يتبادل أطراف الحديث مع فرسان جزيرة رودس، وإذا به يرى عرّوج رئيس مارّا أمام الدكّان كأنه يريد الذهاب إلى الخدمة فقال لمن معه من البحارة:

«لمن هذا الأسير الذي يغدو ويروح، أراه دائما يمرّ من هنا يخدم بحيوية ونشاط. لو يقبل صاحبه بيعه لاشتريته». عندئذ قال أحد القباطنة:

«أنا صاحبه، إذا تريد شراءه أبيعه لك؟».

- «كم تريد؟».

«أريد ألف دينار».

- «هذا مبلغ كبير».

«حسنا أتركه لك بثمانمائة».

وقبل أن تتم عملية البيع ألغيت الصفقة. لأن فرسان رودس قد بلغهم أن عرّوج تاجر معروف. وقالوا لبعضهم:

«إن أخاه خضر رئيس في بودروم، وهو مستعد لدفع

عشرة آلاف دينار وأسير قيمته عشرة آلاف هل يعقل أن يباع بثمانمائة؟».

أعادوا لسانتورلو أوغلو ماله واستعادوا عرّوج. لقد علموا قيمته الحقيقية من غريغو، الذي كان قد احتال عليَّ في الثمانية عشر ألف التي دفعتها له وأعلم الفرسان باستعدادي لإنقاذ عرّوج.

وعلى إثر هذه الحادثة ألقى الرودسيون عرّوج في زنزانة تحت الأرض لكي لا أجد أيّة حيلة تمكنني من إنقاذه. وجعلوا يعذبونه أكثر من ذي قبل، ووضعوا الأغلال في يديه ورجليه وعنقه إلا أنهم كانوا يعطونه من الطعام ما يسدّ به الرمق.

لم يتمكن عرّوج من تحمّل هذا العناء كثيرا فطلب مقابلة ضابط الزنزانة التي حُبس فيها فأذن له في ذلك وعندما خرج سأله الضابط:

«لماذا جئت؟».

-«ما الذي تريدونه من وراء هذا الإيذاء الذي تلحقونه بي؟».

«اعلم أيها التركي: كيف تحاول إنقاذ نفسك بدفع ثمانمائة دينار؟ إن أخاك خير الدين رئيس ينتظر إنقاذك بمال الدنيا في بودروم، فهل تظن أنه لا علم لنا بذلك أم تظن أننا حمقى؟».

- «كم تريدون أن أدفع لكم لإطلاق سراحي؟».

«وأنت كم تدفع؟ كم تقدر نفسك؟».

- «أنا أقدّر نفسي بجميع محصول الروملّي من الشعير وجميع المصاريف اليومية التي تدفع في الأناضول، بالإضافة إلى مائة ألف دينار أدفعها لكم!!!».

«أيها المجنون استمر في سخريتك، سوف ترى كيف تكون عاقبتك».

بعد هذه المحاورة أمر الضابط الحانق رئيس السّجّانين بمعاملة عرّوج أسوأ مما كان يعامله من قبل، فانزعج عرّوج كثيرا من هذا الوضع. وفي إحدى الليالي كان يبكي ويدعو في زنزانته وحيدا:

«يا رب: أنت الذي تَهَب الفرَج للعاجزين، فأغث عبدك الضعيف بجاه حبيبك ﷺ، وعجّل إنقاذي من ظلم هؤلاء الكافرين».

قضى عرّوج تلك الليلة يدعو في ذِلَّةٍ وانكسار حتى سقط في الحمأة وغلبه النوم من شدة التعب، فرأى في منامه شيخا مشرق الوجه يقول له:

«يا عرّوج: لا تحزن بسبب ما أصابك من الأذى في سبيل الإسلام فإن خلاصك قريب».

استيقظ عرّوج في غاية السرور لهذه الرؤيا وقد تلاشت همومه وانشرح صدره. وفي ذلك الصباح اجتمع كل قباطنة رودس وجعلوا يتشاورون في أمر عرّوج. فقال أحدهم:

«إن أعمال البحر ليست ثابتة، اليوم عرّوج وغدا نحن. أرى أن الاستمرار في إيذاء هذا التركي ليس صوابا».

وعلى هذا فقد قرروا إخراج عرّوج من الزنزانة، وتقييده في إحدى السفن حيث صار أسيرا جدّافا بها، ومع هذا فقد كان يقول:

«إنّ العمل في الجدف على سطح البحر نعمة بالنسبة لمن رأى الأذى تحت الأرض. يا رب لك الحمد، فقد رأيت وجه العالم».



قلعة بودروم بجزيرة رودس

فرار أخي عرّوج من سفينة فرسان رودس ونجاته

في تلك الفترة كان الأمير قرقود* KORKUT واليا على أنطاليا ANTALYA، وكان قد تعوّد على أن يشتري في كل سنة مائة أسير تركي من فرسان جزيرة رودس ويعتقهم في سبيل الله. وفي تلك السنة أرسل حاجبه إلى رودس لفداء الأسرى، فقام الرودسيون بفرزهم وتسليمهم إليه. وكانت الاتفاقية تقضي بأن يُحمَل الأسرى في سفينة رودسية إلى سواحل أنطاليا، فمن تقدير الله تعالى أن يقع الاختيار على السفينة التي كان عرّوج مقيدا بها لنقل الأسرى. ونظرا لقيمة عرّوج فإن الرودسيين لم يجعلوه ضمن المائة أسير الذين سيتم الإفراج عنهم.

كان عرّوج رئيس رجلا خفيف المزاج يتكلّم الكثير من اللغات لا سيما الرومية التي كان يتقنها بشكل لا مثيل له[1]، وكثيرا ما كان يتبادل أطراف الحديث مع القباطنة الرودسيين

---

* الأمير قرقود: الابن الثالث للسلطان بايزيد الثاني، والأخ الأكبر للسلطان سليم الأول اشتهر بحمايته للبحارين الأتراك. قتله السلطان سليم الأول بعد جلوسه على عرش السلطنة في 1512.

(1) ولعلّ ذلك لأن أمّه كانت رومية حسبما صرّح خير الدين في بداية المذكّرات، وطبيعي أن يتقن لغة أمّه التي كانت تحدّثه بها.

الذين يجيئون إلى سفينته. وذات يوم قال القباطنة لعرّوج:

«أيها التركي : أنت رجل حلو الحديث، خصوصا بلساننا الذي تعرفه جيدا. ما الذي وجدته في الإسلام؟ تعال ادخل في ديننا وسوف يكون لك شأن كبير بيننا!!».

فأجابهم عرّوج قائلا:

«أيها المجانين: كل شخص يروقه دينه. هل يوجد نبي أفضل من النبي محمد ﷺ لأؤمن به؟».

- «إذن لتبق على حالك، وننظر كيف يخلصك نبيك من أيدينا. والآن لتستمر في الجدف»...



يجب أن تحذروا من عرّوج

قال قسيس السفينة التي قيِّد فيها عرّوج للقباطنة محذرًا:

«يجب أن تحذروا مما يقوله عرّوج، فلا تتحدثوا معه كثيرا. إنه يبدو متعلّما ويعرف عن الإسلام أكثر مما أعرف عن المسيحية. إياكم أن تغفلوا فهو ملحد قادر على إضلالكم جميعا».

رست السفينة الرودسية في مكان موحش قريب من أنطاليا، حيث أُنزل حاجب الأمير قرقود ومعه المائة أسير، فتُركوا هناك. وفي تلك الليلة كانت تهبُّ ريح معاكسة، قرر الرودسيون بسببها انتظار الصباح. ثم قاموا بإنزال قارب السفينة والمضيِّ لصيد السمك. في هذه الأثناء هبَّت عاصفة شديدة لم يتمكن القارب بسببها من الرجوع إلى السفينة، فرسى في مكان بعيد عن الساحل. انتهز عرّوج هذه الفرصة التي لم يكن فيها أحد يستطيع أن يرى الآخر من شدّة الظلام الذي كان مخيِّما على المكان، فحلَّ قيوده وألقى بنفسه في البحر قائلا: **«بسم الله الرّحمن الرّحيم»** وراح يسبّح حتى وصل إلى الساحل بسلام.

سجد شكرا لله ثم سار حتى وصل إلى قرية تركية. وبينما هو يلتفت يمينا وشمالا باحثا عن شيء يستدل به على مكان وجوده إذا به يجد أمامه عجوزا تركية تقول له:

«يبدوا أنك قد جئت من سفر بعيد يا بنيَّ؟ تعال انزل عندي

ضيفا في هذه الليلة».

أخذت العجوز عرّوج رئيس إلى بيتها وأحضرت له الطعام. فأطعمته وسقته وغيّرت له ملابسه، وأمضى عشرة أيام في تلك القرية التي كان أهلها يختصمون على استضافته في كل ليلة.

وأما الرودسيون فإنهم عندما حلّ الصباح وجدوا مكان عرّوج خاليا، فأدركوا أنه قد تمكن من الفرار. وعندما يئسوا من العثور عليه راحوا يتساءلون في حيرة وقلق: «بأيّ وجه سنعود إلى رودس؟».

رجعوا إلى رودس والحسرة تأكل قلوبهم. وأما قسيس السفينة فقد أعلمهم بأن: «معرفة عرّوج بالسحر هي التي مكّنته من الفرار».

ودّع عرّوج العجوز وغادر القرية متوجّها إلى ميديلّي، فبلغ أنطاليا خلال ثلاثة أيام فلقي هناك رجلا مشهورا يدعى «علي رئيس» الذي كان يملك سفينة من نوع قليون* KALYON

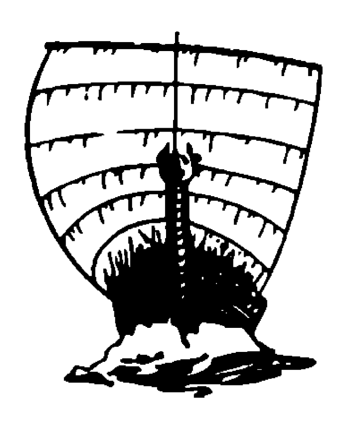
* قليون : سفينة حربية ذات أشرعة هوائية، يقوم بدفعها الجدافون من أسرى الحروب. كانت تستعمل قبل اكتشاف السفن البخارية. انظر:

Osmanlı tarihi Deyimleri ve Terimleri sözlüğü.c.II.s.153-154

يتاجر بها بين الإسكندرية وأنطاليا. وقد بلغته شهرة عرّوج رئيس. فرحّب به قائلا:

«أهلا وسهلا بك يا بني، إن السفينة ليست لي فحسب، بل هي سفينتك أيضا»، ثمّ لم يلبث عرّوج أن صار قبطانا ثانيا لسفينة علي رئيس.

في هذه الأثناء يئستُ من الانتظار في بودروم فرجعت إلى ميديلّي. وعندما وصل أخي إلى الإسكندرية بعث من هناك رسالة إلى ميديلّي شرح لي فيها مغامرته، فسُررت كثيرا بنجاة أخي وخلاصه من الأسر.



أخي يدخل في خدمة سلطان مصر

سمع سلطان مصر بشهرة أخي فدعاه للقدوم عليه، وعندما مَثُل بين يديه عرض عليه الدخول في خدمته. ذلك لأنّ السلطان كان يريد أن يبعث بأسطول إلى سواحل الهند[1]. وإذ وافق عرّوج على عرض السلطان فإن هذا الأخير قد عيّنه قائدا للأسطول.

كتب السلطان مرسوما ملكيا إلى والي أضنة ADANA أمره فيه بأن يرسل إلى ميناء باياس PAYAS بخليج الإسكندرون ما يكفي لصناعة أربعين قطعة بحرية من الأخشاب. فأعدّ والي أضنة الأخشاب المطلوبة وأرسلها إلى ميناء باياس، فخرج

---

(1) في هذه الفترة تمكّن البرتغاليون من اكتشاف الطريق إلى الهند عن طريق الالتفاف حول إفريقيا. وجعل القراصنة البرتغاليون يغيرون على السفن الإسلامية المحمّلة بالبضائع القادمة من الهند. وإضافة ذلك كانوا يعترضون سفن الحجّاج ويستولون عليها بعد قتل من عليها من الحجّاج أو بيعهم رقيقا. كما أنّهم لم يكتفوا بذلك؛ بل صاروا يعتدون على السّواحل الإسلامية في الهند وشرق إفريقيا المطلّة على المحيط الهند والبحر الأحمر. فشكّلوا بذلك خطراً كبيراً على الملاحة الإسلامية، الأمر الذي جعل السّلطان المملوكي يسعى لبناء أسطول قادر على حماية السواحل الإسلامية هناك، ويجعل على رأسه قبطانا كفؤاً فكان اختياره لعرّوج يندرج في هذا السياق.

عرّوج في ست عشرة سفينة إلى باياس لأخذ الأخشاب على أن يتجه بعدها إلى مصر.

علم الرودسيون بأن عرّوج قد صار قائدا لأسطول سلطان مصر فراحوا يترقّبون الفرصة للقضاء عليه، وعندما بلغهم مجيؤه إلى باياس قاموا بالإغارة عليه بأسطول كبير. أدرك عرّوج رئيس خطورة موقفه فقام بسحب جميع سفنه إلى البر. وانسحب ببحارته إلى داخل الأراضي العثمانية، حيث صرفهم إلى بلدانهم، بينما عاد هو إلى أنطاليا، وهناك أمر بصناعة سفينة ذات ثمانية عشر مقعدا أغار بها على سواحل رودس، ولم يعط الكافرين فرصة لالتقاط أنفاسهم.

قال الأستاذ الأعظم*:

«لقد ظهر قرصان يدعى عرّوج رئيس يملك سفينة ذات ثمانية عشر مقعدا لا يكاد ينجو منه أحد. إنه يقوم بالاستيلاء على أموالنا وإحراق بلادنا، وكثيرا ما يأسر أطفالنا ويأخذهم إلى طرابلس الشام حيث يبيعهم في أسواقها، حتى صرنا لا نقدر على ركوب البحر خوفا من شره. لقد كنت حذّرتكم

* الأستاذ الأعظم: لقب كان يطلق على رئيس دولة رودس في ذلك العصر. انظر: تعليق الأستاذ يلماز أورزتونا على هامش مذكرات خير الدين بربروس ص: 17.

وقلت لكم لا تخرجوا هذا التركي من الزنزانة من تحت الأرض، لكنكم لم تسمعوا قولي فأخرجتموه وجعلتموه جدّافا في السفينة. هيا اذهبوا وتخلصوا منه بسرعة».

انطلق الرودسيون خلف عرّوج في خمس أو ست قطع بحرية وراحوا يبحثون عنه في كل مكان. وأخيرا عثروا على سفينته راسية في أحد المراسي، فقاموا بإحراقها، إلا أن أخي تمكن من النجاة بمن معه من البحارة وعاد إلى أنطاليا.

أُخِذت سفينة عرّوج إلى ميناء رودس وشُهِّر بها على رؤوس الخلائق، إلاّ أنّ عدم تمكن الفرسان من أسره واقتياده إلى رودس أثار سخط الأستاذ الأعظم الذي صرخ فيهم قائلا:

«نعم هذه السفينة لعرّوج، لكنه ليس موجودا فيها» !!.

في الوقت الذي رجع فيه عرّوج إلى أنطاليا كان الأمير قرقود ابن السلطان بايزيد الثاني قد غادر **تكّة TEKKE** بأنطاليا[1]، وتوجّه إلى **ساروخان SARUHAN** التي عُيِّن واليا عليها. وكان للأمير قورقود خازن يقال له : **بيالة باي PİYALE BEY**، وهذا الأخير كان عرّوج قد أهدى إليه غلاما إفرنجيا، كما كانت

(1) لا يقصد المعنى الصوفي المعروف، بل هو اسم كان في أنطاليا التي كان الأمير قرقود ابن السّلطان بايزيد الثاني أميرا عليها في هذه الفترة.

تربطهما صداقة حميمة. وعندما وقع عرّوج في هذه الظروف الصعبة وبقي بدون سفينة قام بيالة باي يذكر ذلك لسيده الأمير قورقود فقال له:

«إن عرّوج رئيس عبد من عبيدكم المجاهدين، وهو يقوم بمجاهدة الكفار ليلا ونهارا. لقد انتصر عليهم في معارك كثيرة، غير أنّه فقد سفينته وهو يرغب في أن تتفضّلوا عليه بسفينة يغزو عليها».

كان الأمير قورقود قد بلغته شهرة عرّوج، ولأجل ذلك أبدى استعداده لتحقيق رغبة عرّوج بسرور وعليه فدعاه للمثول بين يديه. وعندما جاءه احتفى به وقال له مُسَلِّيًا:

«لا تأس فإنّي لن أدعك بدون سفينة»، ثم لم يلبث أن كتب إلى قاضي إزمير كتابا يقول له فيه:

«إذا بلغك كتابي هذا، عليك أن تأمر بصنع سفينة من نوع قاليتة * KALİTE دون تأخير حسب رغبة ولدي عرّوج، وذلك ليتمكن من مجاهدة الكفار عليها».

---

* قاليتة : إحدى السفن الحربية التي كانت مستعملة قبل اكتشاف السفن البخارية. تحتوي على 20-25 مقعدا. تستعمل على وجه الخصوص لمطاردة سفن العدو. انظر :

Osmanlı Tarih deyimleri ve terimleri sözlüğü.c.II.s.151.

كما قام بيالة باي بكتابة أمر إلى رئيس الجمارك بإزمير جاء فيه:

«إنّ عرّوج أخونا في الدنيا والآخرة فلا تحرمه من عونك. عليك أن تأمر بصنع سفينة ذات اثنين وعشرين مقعدا وأن تقوم بالإشراف عليها بنفسك. كما يجب عليك أن تقوم بتسليمها إلى عرّوج في أقرب وقت ممكن، وأن تكتب جميع مصاريف تجهيز السفينة في حساب سيدي الأمير قورقود».

جاء عرّوج إلى إزمير فسُلّمت له السفينتان في الموعد المحدد: إحداهما تلك التي كان قد أهداها له الأمير قورقود وأما الثانية فكانت ملكا لبيالة باي قد وضعها هذا الأخير تحت تصرف عرّوج.

قام عرّوج بتجهيز السفينتين وجمع بحارته وانطلق بهم إلى فوجا FOÇA، كانت سفينة عرّوج ذات أربعة وعشرين مقعدا وأما سفينة بيالة باي فقد كانت ذات اثنين وعشرين مقعدا. لقد تم صنع هاتين السفينتين خلال ثلاثة أشهر ونصف.

قام عرّوج بتجهيز السفينتين وجمع بحارته وانطلق بهم إلى ميناء فوجا ومن هناك توجّه إلى مانيسا MANİSA، حيث نزل في قصر بيالة باي، فمكث عنده ضيفا ثلاثة أيام قبل أن يمضي للمثول بين يدي الأمير قورقود. فبالغ الأمير في الثناء عليه والدعاء له بالنصر في غزواته.

ودّع عرّوج الأميرَ قورقود وبيالة باي في مانيسا، ثم عاد

إلى فوجا، فأمضى تلك الليلة مستغرقا في الدعاء والعبادة. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي أقلع بسفنه، فلقي بعد بضعة أيام من خروجه سفينتين من سفن البندقية **VENEDIK** في عرض البحر، فاستولى عليهما. كان في السفينتين أربعة وعشرون ألف دينار، فأُخِذَت هذه الأموال وغيرها غنيمة. لقد صار البحارة أغنياء بذلك المال. كيف لا يستغنون وقد حازوا دعاء ابن عثمان الأمير قورقود. إن من فاز بدعاء السلطان تكون عاقبته خيرا ومن دعا عليه السلطان فإنه يظل غارقا في بحر المصائب لا يخرج منها.

خاض عرّوج هذه المعركة في سواحل بوليا * **PULYA**، ومن هنالك توجه إلى سواحل الروم فصادف في عرض مياه جزيرة **أغريبوز** * **AĞRIBOZ** ثلاث سفن أخرى تابعة للبندقية. عندما رأى كفار البندقية سفن عرّوج رئيس شرعوا في إطلاق قذائفهم عليه، فشرع عرّوج بتشجيع بحارته بعبارات حماسية دفعتهم إلى الإقدام على مهاجمة السفن التي كانت قد حوّلت

---

* يسمي الأتراك ولاية «أبوليا» التي تقع جنوب شرق إيطاليا: «بوليا». انظر تعليق الأستاذ يلماز أوز تونا على المذكرات. ص19.

* أغريبوز: جزيرة يونانية، تقع جنوب شرق اليونان على ساحل بحر إيجة.

البحر إلى جحيم بقذائف مدافعها.

اقتربت السفن من بعضها البعض، فقفز البحارة إلى سفن الكفار واستولوا عليها بعدما أخذوا مائتين وخمسة وثمانين أسيرا وقتلوا مائة وعشرين من بحارتها.

نقلت الأموال التي كانت في السفن إلى سفن عرّوج رئيس. فكانت السفن تبدو كالسلحفاة من ثقل الغنائم التي كانت تحملها؛ فقدموا بها إلى ميديلّي في احتفال كبير.

استقبلت أنا وأخي إسحاق عرّوج في الميناء رفقة جميع أقاربنا، فسلّمنا على بعضنا البعض وتعانقنا بحرارة وشوق كبيرين، ذلك لأنه كانت قد مضت سنوات طويلة على مغادرة عرّوج رئيس لميديلّي.

قرّر أخي عرّوج مغادرة ميديلّي إلى إزمير لمقابلة وليّ نعمته الأمير قورقود وأخيه بيالة باي. وفي هذه الأثناء بلغنا خبر جلوس السلطان سليم خان على عرش السلطنة، ومعاداته لأخيه الأمير قورقود الذي فر من شدة الخوف[1].

---

(1) هو السّلطان قانصو الغوري KANSU GAVRİ (ت: 1516) آخر سلاطين دولة المماليك في مصر. قتل في معركة مرج دابق بين العثمانيين والمماليك حيث تم القضاء على دولة المماليك وحلّ العثمانيون محلّهم في إدارة البلاد التي كانت خاضعة لهم.

حزن أخي عرّوج كثيرا لهذا الخبر، فقال له أخي الأكبر إسحاق:

«يجب أن تعجل بالخروج من هنا وتقضي هذا الشتاء في الإسكندرية، ثم ننظر ما الذي يحدث؟ إن السفينة التي لديك من إحسان الأمير قورقود، فقد يصيبك من ذلك ضرر».

وقبل أن يبقى لأخي عرّوج وقت لإطفاء حرارة الشوق ودّع كل منا الآخر وغادر ميدلّي. فاستولى في سواحل جزيرة كربة KERPE على سبع سفن للعدو مضى بها إلى الإسكندرية.

عندما وصل إلى هناك علم السلطان بوصوله مع يحيى رئيس بسبع سفن مشحونة بالغنائم. كان عرّوج رئيس في غاية الحرج من سلطان مصر بسبب فقدانه السفن التي منحها له، وذلك عندما استولى عليها الرودسيون حينما أغاروا عليه في باياس. ولكي يفوز بعفو السلطان فقد خَصَّ هذا الأخيرَ بعدد من السفن من أموال الغنائم. كما اختار أربع جواري وأربعة غلمان وقدمها له. فسُرّ السلطان بذلك كثيرا وأحسن ضيافته هو ورفاقه ثم قال له:

«إن الله عفوٌّ يحب العفو. لقد عفوت عنك يا قبطان عرّوج. حقيقة لقد تركت ستة عشر مركبا تحترق لكنك لم تدع أحدا من البحارة الذين كانوا فيها يُصابون بأذى، فأنقذتهم جميعا ولم تترك أحدا منهم يقع في الأسر. فأنا لم آسف لاحتراق سفني إذ الأيام

دول، وكل شيء يمكن أن يحدث، وإنما أسفت لعدم مجيئك إليَّ. لقد عفوت عنك وأشكرك إذ أخذت بخاطري من جديد».

قال ذلك وبالغ في إكرام أخي وكافأه بأكثر من الهدايا التي أتحفه بها.

استأذن أخي وعاد من القاهرة إلى الإسكندرية. وكان السلطان قد كتب أمرا إلى واليه بالإسكندرية يأمره فيه بإكرام أخي ورفاقه، فقام الوالي بإكرامهم وحسن ضيافتهم، مما مكّن أخي من قضاء وقت ممتع هناك.

حل الربيع فكتب أخي إلى السلطان يستأذنه في الخروج للغزو فأذن له بذلك، فركب البحر متوجها إلى سواحل قبرص حيث استولى على خمس مراكب تابعة للبندقية، ومن هناك توجه نحو الغرب فوصل إلى جزيرة جربة بتونس حيث باع غنائمه لتجار الجزيرة. فكان نصيب كل بحار خمسة وعشرين ذراعا من جوخ[1] البندقية وأربع بنادق وأربعة مسدسات ومائة وواحد وسبعين ديناراً ونصف.

وجد عرّوج سفينة ذاهبة إلى الإسكندرية فبعث فيها إلى سلطان مصر أغلى أنواع الجوخ والبنادق والمسدسات بالإضافة إلى غلام في الثالثة أو الرابعة عشر من عمره. فقال السلطان لما

---

(1) الجوخ : نوع من أنواع الأقمشة المنسوجة من الصوف.

وصلته تلك الهدايا:

«إذا كان في هذه الدنيا أحد يرعى حق النعمة ويعرف الفضل لأهله فهو ولدي القبطان عرّوج».

دعا السلطان لأخي كثيرا وتوثّقت أواصر المودة بينهما. وأمّا أخي فقد استمر في اقتناص سفن الأعداء في سواحل جربة، حيث غنم في هذه الغزوات ما بين خمسٍ أو عشرِ سفن أخرى.



ظننت أن العالم كله صار ملكا لي

تعالوا نتعرف على أوضاع البلاد: عندما جلس السلطان سليم خان على العرش وقع خلاف بينه وبين أخيه الأمير قورقود، فأرسل إليه السلطان سليم جيشا لم يدع مكانا لم يبحث عنه فيه إلا أنه لم يتمكن من العثور عليه. في ذلك الوقت كان القبطان باشا[1] إسكندر باشا في غاية الجور والظلم، ذلك لأنه لم يكن يأذن لأحد بركوب البحر ولو على قارب صغير ذي مجدافين، وكثيرا ما كان يؤذي البحارة بدعوى أنهم من رجال الأمير قورقود. عندما بلغتني أخبار جوره قررت مغادرة ميديلّي، فشحنت سفينتي بالقمح ثم مضيت بسرعة إلى طرابلس الشام حيث استبدلت القمح بالشعير، ثم ذهبت إلى بروزة **PREVEZ** حيث بعت شعيري واشتريت بعض الأفراس والبغال. ثم رسوت في جزيرة أياماوري **AYAMAVRİ** المقابلة لبروزة فرأيت سفينة ذات أربعة وعشرين مقعدا راسية في الميناء أعجبت بها كثيرا فسألت عن صاحبها فقيل لي بأنها لقبطان تركي يدعى «القبطان فتّاح».

---

(1) قبطان باشا، أو قبودان باشا: القائد العام للقوات البحرية العثمانية

Osmanli Tarihi Deyimleri.c.II.s.8.

كان القبطان فتّاح قد توفي قريبا فأرسل ورثتُه السفينة إلى هناك لبيعها. لقد أُغرمت كثيرا بهذه السفينة وكنت مستعدا لدفع أي مبلغ يريده أصحابها، وفي النهاية اتفقت معهم على ست كيسات من الفضة[1]. عندما اشتريت تلك السفينة خُيّل

---

(1) الكيسة، هكذا وردت في الأصل، وهي تعبير عن وحدة نقدية كان يتم التعامل بها في عصر بربروس، وبالرّجوع إلى الدراسات التي تعنى ببيان المعاملات المالية في الدولة العثمانية يتبيّن أنّه خلال القرن 16 كان لفظ الكيسة يعني محفظة النقود الفضيّة، وأمّا محفظة النقود الذهبية، فكانت تدعى «الصرة»، وكلّ منهما كان يستعمل لحساب المبالغ المالية الكبيرة. ولقد اختلف مقدار الكيسة والصرة باختلاف العصور، فحتى عصر السلطان سليم الأول كانت الكيسة تقدّر بثلاثين ألف أقجة أي درهم فضي، أو عشرة آلاف دينار ذهبي. وعندما تأسّست دار السّكة بالجزائر في أواسط القرن 16 تمّ صك الدينار الذهبي الذي كان يسمّى «السلطاني»، وكانت الكيسة حينئذ تقدّر بثلاثين ألف دينار سلطاني، وبعد هذا التاريخ استمرّ تغيير قيمة الكيسة والصرة إلى أن تمّ إلغاء التعامل بها سنة 1877.

لمزيد من التفاصيل انظر :

Osmanlı Tarihi Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, II. s, 247- 248; İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Osmnalı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilatı, s, 354.

إليَّ وكأن العالم كله قد صار ملكا لي. ركبت سفينتي وأخذت بقية القطع فجُبت البحر المتوسط طولا وعرضا إلى أن أتيت جزيرة جربة، حيث لقيت أخي عرّوج هناك. وبينما نحن نفكّر في وجهتنا إذ بدا لنا أن نتوجه إلى تونس وقلنا: «ما دام الموت هو نهاية كل حي فليكن في سبيل الله».

كنت أنا وأخي ويحيى رئيس، ركب كل منا سفينة وأتينا تونس فدخلنا على السلطان وقدمنا له الهدايا ثم قلنا له:

«نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة ثُمُن ما نحوزه من الغنائم (1/ 8)».

فأجابهم سلطان تونس قائلا:

«إن ما تقولونه معقول جدا. فأهلا وسهلا بكم البلد بلدكم».



بارك الله في غزوكم

أذن لنا السلطان بالرّسُو في ميناء حلق الوادي فقضينا الشتاء هناك. وعندما حل الربيع ركبنا البحر. بخمس قطع بحرية. كانت سفينتي أسرعها. فبلغنا جزيرة سردينيا SARDUNYA وهناك استولينا على سفينة أحد القراصنة. كان فيها مائة وخمسون أسيرا.

وفي هذه الأثناء بدت لنا في الأفق سفينة كأنها جبل كشيش* KEŞIŞ DAĞI والعياذ بالله. قال لي ذراعي الأيمن دلي محمد DELI MEHEMET الذي كان قبطانا لإحدى سفننا ومعروف بشجاعته:

«سيدي القبطان أرجو أن تأذن لي في الذهاب لأستولي على تلك السفينة».

ولكي آخذ بخاطر دلي محمد رئيس أذنت له بأن يمضي ليستولي عليها. كانت سفينته تبدو صغيرة جدا أمام سفينة

---

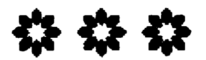
* جبل كشيش: جبل مشهور في تركيا، يشرف على مدينة بورسة يعرف اليوم بجبل أولوداغ (Uludağ). يضرب به المثل في العلو. ويعتبر اليوم أحد المتجعات الشتوية المشهورة في تركيا.

العدو وكأنها غلاف حبة البندق. أما نحن فقد تعقّبنا سفينة دلي محمد، وعندما حاذينا السفينة. لم نجد بها أحدا. لقد ركب القراصنة قواربهم ولاذوا بالفرار عندما رأوا سفننا. صعدنا إلى السفينة فوجدناها مشحونة بالقمح. سلمنا على دلي محمد وقلنا له:

«غزو مبارك».

وفي الصباح التالي استولينا على سفينتين أخريين: إحداهما كانت مشحونة بالعسل والزيتون والجبن، وأما الأخرى فقد كانت سفينة جنوية[1] محمّلة بالحديد.

وصلنا إلى تونس على أصوات المدافع، مثقلين بغنائم كالجبال. أخذ جميع الغزاة قدر ما يريدون من الغنائم. وقمنا بفرز حصة السلطان وتصدقنا بمال كثير على الفقراء، فنلنا منهم كثيرا من الدعاء.



(1) تابعة لجمهورية جنوة التي كانت إحدى الجمهوريات الإيطالية في ذلك العصر.

بدأ الكفار يهابوننا

أمضينا الشتاء في تونس أيضا، وعندما حل الربيع خرجنا للغزو. وصلنا خلال ثلاثة عشر يوما إلى ميناء نابولي NAPOLI بجزيرة مورة فصادفنا مركبا كبيرا متوجها إلى إسبانيا. كان فيه ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة مقاتل. رفعنا راياتنا الذهبية وشرعنا في قصفهم. حاولنا سبع مرات الاقتراب من المركب، وفي المرة السابعة تمكنا من محاذاته، فجرت معركة كبيرة تمكنا على إثرها من الاستيلاء عليه. في هذه المعركة فقدنا مائة وخمسين شهيدا وجُرح ستة وثمانون من رفاقنا بعد المعركة. تبين لنا أنه كان في السفينة خمسمائة وخمسة وعشرون شخصا، أسرنا منهم مائة وثلاثا وثمانين. وأما الآخرون فقد تمّ قتلهم، كان من بين القتلى والٍ لإحدى المقاطعات الكبيرة بإسبانيا. وبعد ذلك استولينا على سفينة أخرى ثم رجعنا إلى تونس، حيث تمّت معالجة أخي عرّوج الذي كان قد جرح في إحدى هذه المعارك.

هذا، وقد كان من بين الغنائم التي حصلنا عليها: سبعون أو ثمانون ببغاءً وعشرون بازيا قمنا بإهدائها جميعا إلى سلطان تونس.

بعد هذه الغزوة شاع أمرنا في كل ممالك الكفر، فاتفقوا على القضاء علينا قائلين:

«لقد ظهر تركيان اسمهما: عرّوج وخير الدين خضر. يجب أن نسحق هاتين الحيّتين قبل أن تتحولا إلى تِنِّين. علينا أن نمحو اسميهما من على وجه الأرض. إنّنا إذا أتحنا لهما الفرصة سوف يسببان لنا متاعب كثيرة».

وهكذا أعدَّ الكفار عشر قطع بحرية من نوع قادرغة* KADIRGA إعدادا جيدا لإلقاء القبض علينا، لكننا كنا قد ركبنا البحر قبل وصولهم، كنا نريد التوجه إلى جنوة GENEVİZ، إلا أنه بسبب مخالفة الرياح توجهنا إلى سواحل الجزائر فرسونا أمام قلعة تدعى: بجاية.

وأما السفن الإسبانية فإنها عندما لم تعثر علينا في سواحل جنوة، فقد توجهت إلى بجاية. كان الاشتباك معها على الساحل فيه خطورة كبيرة، ولذلك فقد ركبنا البحر بسرعة. ظنت السفن الكافرة أننا فررنا منها فانطلقت خلفنا. وعندما ابتعدنا عن الساحل بمسافة كافية أمرنا أخي عرّوج بالعودة والاقتراب

---

* قادرغة : إحدى السفن الشراعية الحربية التي كانت مستعملة قبل اكتشاف السفن البخارية. تشتمل على 25 مقعدا. كل مجداف يقوم بدفعه 4-5 جدّافين. تمتاز بطولها وخفتها. يتكون طاقمها من 35 بحارا و196 جدافا و100 بحارا كما تحمل 13 مدفعا. انظر :
Osmanlı Tarihi Deyimleri ve Terimleri sözlüğü.cII.s.129.

من السفن الكافرة فدهش الكفار هٰذه المناورة التي لم يكونوا يتوقّعونها.

جرت معركة كبيرة حيث قمنا خلال ذلك بهجوم خاطف على سفينة القيادة فتمكّنا من الاستيلاء عليها مع ثلاث سفن أخرى.

بينما لاذت السفن الباقية بالفرار نحو بجاية محتمية بقلعتها. أراد أخي عرّوج أن يهاجم القلعة ليستولي على السفن فأردت منعه بسبب خطورة وضعه لقد كان الأحوط أن نأخذ السفن الأربعة ونرجع بها إلى تونس تاركين السفن الستة الباقية لحالها.



أربع سفن صارت أربعة عشر

لم يستمع أخي لقولي بل أعطى أوامره بالشروع في الهجوم على قلعة بجاية التي كانت تعُجُّ بالجنود الإسبان. وفضلا عن ذلك فقد التحق بهم رفاقهم الذين اندفعوا من السفن للاحتماء بأسوار القلعة.

شرع أخي في مهاجمة القلعة التي كانت تمطر علينا وابلا من قذائف المدفعية والقنابل. خلال ذلك فقدنا ستين شهيدا وعددا كبيرا من الجرحى. كنا على وشك الاستيلاء على القلعة، غير أنه في الوقت الذي اشتد فيه لهيب المعركة أصيب أخي بقذيفة في ذراعه الأيسر.

عندما رأى الإسبان ذلك فتحوا أبواب القلعة وقاموا بمهاجمتنا. حزنت كثيرا لأخي الذي كان قد جرح جراحا بليغة. وبسبب حنقي على الإسبان قمت بهجوم عنيف عليهم مع ثلاثمائة أو أربعمائة مقاتل من رجالي وأعملنا فيهم السيف، وتمادينا في تعقّبهم حتى دفعناهم إلى الاحتماء بأبواب القلعة. في هذا الهجوم قتلنا ثلاثمائة إسباني وأسرنا مائة وخمسين منهم.

لم يكن من المناسب المكوث طويلا أمام القلعة. وأما أخي فقد كان قد فقد وعيه من شدة ما كان يعانيه من جراحه. جمعت جنودي وأمرتهم بركوب السفن، بينما استمر الكفار في قصفنا.

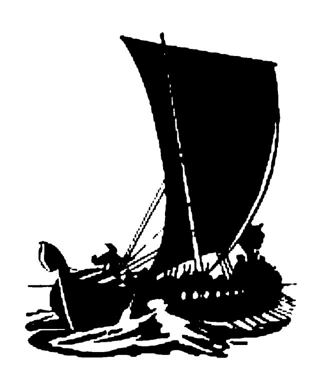
إلا أنهم لم يتمكنوا من إصابة أي أحد منها بفضل الله وعنايته. وتمكّنا على إثر ذلك من العودة إلى تونس بأربعة عشر قطعة بحرية.

قام الجرّاحون بتنظيف جراح أخي عرّوج، إلا أن آلامه كانت تتضاعف من يوم لآخر. فاجتمع الجراحون وقالوا:

«إذا لم تُقطع ذراع أخيك فإن حاله ستكون أكثر خطورة، وعندئذ لن نكون مسؤولين عن ذلك».

أما أهالي تونس فإنهم فرحوا كثيرا عندما رأونا قد رجعنا بأربعة عشر سفينة بعدما خرجنا في أربع سفن فقط، لكنهم عندما علموا بإصابة أخي عرّوج أجهشوا بالبكاء حزنا عليه.

قلت للجراحين: **«من يقوم بإنقاذ ذراع عرّوج فإني سأكافؤه بوزنه ذهبا وأهب له عشرة أسرى يختارهم من أيهم شاء».**



قطع ذراع أخي عروّج

اجتمع الجراحون مرة أخرى للتشاور فلم يتوصّلوا إلى حلّ آخر غير قطع ذراع أخي فأذنت لهم بذلك، فقاموا بقطعها ومعالجة جراح أخي. كنت أبكي بحرقة كبيرة فقال لي:

«لماذا تبكي؟ هذا قضاء الله وقدره. إني أحمد الله على أني فقدت ذراعي في الغزو. تكفيني هذه النعمة».

استعاد أخي عافيته في ذلك الشتاء. وعندما حل الربيع وانتعشت النفوس خرجنا في ثمانية مراكب للغزو فوصلنا إلى سواحل الأندلس حيث كانت المدينة الإسلامية غرناطة قد سقطت قريبا بيد الإسبان.

كان الإسبان يقومون بمظالم كبيرة في حق المسلمين الذين كان الكثير منهم يعبدون الله سرا في مساجد سرية قاموا ببنائها تحت الأرض. لقد دمر الإسبان وأحرقوا جميع المساجد وصاروا كلما عثروا على مسلم صائم أو قائم إلا وعرّضوه وأولاده للعذاب والإحراق. خلال ذلك قمنا بحمل عدد كبير من المسلمين في السفن وإنقاذهم من أيدي الكفار، ونقلهم إلى الجزائر وتونس.

وعندما كنا في سواحل المرية **ELMERIYYE** لاحت لنا سبع سفن للكفّار، فلحقنا بإحداها واستولينا عليها، وبسبب

مخالفة اتجاه الريح لم نتمكن من إدراك السفن الأخرى. كانت السفينة التي استولينا عليها سفينة هولندية محملة ببضاعة قد جلبت من الهند. ومن هناك توجّهنا إلى جزيرة مينورقة MİNORKA حيث دخلنا إلى خليج صغير. كان قد مضى على خروجنا من تونس خمسون أو ستون يوما.

توغّلنا في جزيرة مينورقة فصادفنا ما يقارب مائتي مقاتل مدجّج بالسلاح جالسين على ضفاف أحد الأنهار، كانوا يشوون خروفا ويعاقرون الخمر وقد غاب أكثرهم عن وعيه. قتلنا سبعين أو ثمانين كافرا منهم واستولينا على خمسة أو ستة قطعان من الأغنام، وأُحضر قائدهم إليَّ فسألته عن وجهتهم التي كانوا يقصدونها فقال:

«سيدي لقد علمنا برسوِّكم في مينورقة وقد توجهت إليكم عشر سفن إسبانية من نوع قادرغة. كان من المقرر أن تقوم بمهاجمتكم من البحر، بينما نقوم نحن بالهجوم عليكم من البر».

لما علمت بذلك قمت بتوثيق الأسرى وتفريقهم على السفن مثنى مثنى ثم انطلقنا من مينورقة متجهين إلى جنوة، فاستولينا على أربع مراكب صادفناها في طريقنا. لقد كان من أثر تلك الحملات أن شاع أمرنا في جميع أنحاء مدن الكفار وصرنا أسطورة في نظرهم.

أغرنا على جزيرة كورسيكا KORSIKA، ثمّ توجّهت مع

أخي إلى جزيرة ميدلّي. في سبع قطع بحرية.

«**حبّ الوطن من الإيمان**» مثل عربي صحيح[1]. عندما قابلنا أهلنا شعرنا بانتعاش قلوبنا وأرواحنا. لقد جاءنا جميع أقاربنا وأصدقائنا يسألون عن أحوالنا، فأقمنا وليمة كبيرة دامت سبعة أيام وسبع ليالي أطعمنا خلالها فقراء الجزيرة، وقمنا بتختين الأطفال، وزوّجنا العذارى اللاتي لم يكن لهن أزواج. ولكي ندخل السرور على قلوبهن أقمنا لهنّ احتفالات كبيرة، وخِطنا لهن أثوابا جديدة. أدخلنا السرور على قلوب الأرامل والعجزة والمعاقين. وامتلأت جيوب بحارتنا بالذهب حتى صاروا يشترون البضاعة التي سعرها أقجة واحدة بخمس أقجات، وذلك لكي يتمكن تجار النواحي البعيدة من الربح فيفوزوا ببركة دعائهم. لقد قام أهالي ميدلّي بإكرامنا والاعتناء بنا وخدمتنا بأن كانوا يحملون إلينا الطعام والفاكهة راجين منا قبولها.

❀ ❀ ❀

(1) هذا ليس مثلا عربيا بل حديث موضوع شائع على ألسنة الناس. انظر : المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي: ص 183.

حبّنا للبحر فوق كل حبّ

كنا نريد أن نقضي الشتاء في الجزيرة. وخلال ذلك قمنا بإكرام جميع أقاربنا من مال الغنائم، وخصّصنا أخانا الأكبر إسحاق[1] بمقدار كبير من مال وذهب البندقية وحُزنا على دعائه المبارك، إلا أنه عندما رأى ذراع أخي عرّوج المبتورة حزن على ذلك حزنا شديدا.

أراد أخي عرّوج ذات مرة أن يتزوج ويستقر في ميديلّي إلاّ أنّه سرعان ما تخلّى عن هذه الفكرة، لأن حبه للبحر كان يفوق كل حب، بل لم يكن يعدله أي شيء آخر.

وذات صباح قال لنا:

«لقد رأيت في الليلة الماضية رؤيا صالحة. رأيت ذلك الشيخ ذا اللحية البيضاء الذي بشرني بالنجاة عندما كنت أسيرا في رودس يقول لي: يا عرّوج توجّه إلى الغرب، إن الله قد كتب لك هناك كثيرا من الغزو والعِزّ والشرف..».

(1) هو إسحاق رئيس الأخ الأكبر لخير الدين بربروس. التحق بهم في الجزائر، واشترك مع إخوته في غزواتهم. استشهد في قلعة سيدي راشد بالجزائر سنة 1518 ضد الإسبان.

كانت السفن تصل إلى ميديلّي لأنّ القباطنة كانوا يشترون الأسرى من هناك لاستخدامهم في الجدف، فقلت ذات يوم لهؤلاء القباطنة:

«لدي ثمانمائة وسبعة وعشرين جدّافا زائدا أبيعهم لكم».

وعلى هذا النحو بعت هؤلاء الجدّافين للتجار القباطنة العثمانيين. كان بعضهم يقدّر بخمسمائة دينار، وبعضهم بثلاثمائة بينما كان بعضهم أقل من ذلك.

دفعت رسوم الجمارك المتعلقة بالأسرى الذين قمت ببيعهم، وبعثت إلى رؤساء الميناء حقوقهم، كما تبرعت للأوقاف الإسلامية.

وهكذا أنفقت نصف ما كسبته من النقود، وأما ما بقي منها فقد اقتسمته مع أخي عرّوج. لم نكن نحب الاحتفاظ بالمال ولذلك فقد أنفقنا جميع ما ربحناه على تجهيز سفننا بشكل جيد، والذي بقي قاسمناه بحارتنا؛ فكان نصيب كل منهم تسعون ديناراً، وأما الرؤساء فقد أصاب كل منهم مائة وخمسة وتسعين ديناراً.

لم يكن البحارة ينفقون على طعامهم وشرابهم من جيوبهم، فقد كانت لكل سفينة مطبخها الخاص، كما كان اللحم يقدم للبحارة مرتين في الأسبوع، إلا أنهم كثيرا ما كانوا ينفقون على طعامهم من مالهم الخاص لأن الطعام الذي يقدّم لهم في السفن لم يكن يروقهم كثيرا.

عندما حل الشتاء أذنت للبحارة بقضاء ذلك الفصل بين أهليهم ممن كانوا يقيمون قريبا من الأناضول **ANADOLU** والروملي **ROMELI**، أما من كان أهله في أماكن بعيدة فقد أمضى الشتاء معنا في ميديلّي.

في هذا الشتاء طلبت من مصنع بناء السفن بميديلّي صناعة ثلاث سفن: إحداها ذات خمسة وعشرين مجدافا والأخريان ذوا أربعة وعشرين مجدافا. وهكذا صار لدينا بحلول الربيع عشرة مراكب بحرية.

وبعد أن جهّزنا سفننا تجهيزا جيدا ركبت أنا إحدى السفن الجديدة بينما ركب أخي عرّوج في سفينة أخرى.

وعندما اقترب فصل الربيع بدأت أفواج الشباب الشجعان ممن كانت بلغتهم شهرتنا تصل من الأناضول والروملي إلى جزيرة ميديلّي راجين قبولهم كبحارة معنا، فقبلنا من توسّمنا فيه الشجاعة والإقدام.

قبّلنا يد أخينا الأكبر إسحاق وودّعنا أقاربنا وأحباءنا ثم ركبنا البحر في ساعة مباركة من ذلك الفصل.



الفقراء يترقّبون طريقنا

في طريقنا استولينا على خمس عشرة أو ست عشرة قطعة بحرية. احتفظنا بالمراكب الجيدة منها، وأما تلك التي كانت سيئة فقد قمنا بإغراقها. كانت خمس سفن من التي غنمناها مُحمَّلة بالقمح واثنتان منها محملة بزيت الزيتون، بينما كانت واحدة منها محملة بالعاج، وأما بقية السفن الأخرى فقد كانت مشحونة بأموال وبضائع مختلفة. وبلغ مجموع الأسرى أربعمائة وتسع وسبعين امرأة وعددا لا يحصى من الرجال.

بعد أن مضى على مغادرتنا لميدلّي تسعة وعشرون يوما دخلنا ميناء حلق الوادي بتونس بسبع سفن فوجدنا الميناء مزدحما بالأهالي الذين جاءوا للتفرج علينا. قمنا بتحيتهم بإطلاق المدافع في الهواء.

لقد كان الأهالي يحبّوننا كثيرا، وبلغ من حبّهم لنا أنهم كانوا قلقين من عدم عودتنا مرة أخرى إلى تونس خصوصا الفقراء منهم الذين كانوا ينتظرون رجوعنا بلهفة وترقب. قمنا بتوزيع القمح مجّانا على الفقراء والمحتاجين، وأما بقية الغنائم فقد قمنا ببيعها، كما بعثنا إلى سلطان تونس حصته التي كانت تتكون من خمسة آلاف دوقة بندقية وجاريتين وأربعة غلمان جنويين كانت أعمار الجاريتين والغلمان تتراوح بين خمس

عشرة وست عشرة سنة. لقد كانوا في غاية الجمال، لو بعناهم لكانت قيمتهم كبيرة جدا.

أما السلطان فقد أهدى لنا خيولا فارهة مجهّزة تجهيزا جيدا. ركبت أنا وأخي عرّوج فَرَسَيْنا ومضينا إلى قصر السلطان الذي استقبلنا قائلا:

«شرّفتم مملكتي، بيّض الله وجوهكم في الدنيا والآخرة، أنتم أسيادنا».

وعند مغادرتنا لحضرته كافأ كُلاًّ منا بحُلّة من الفُراء وضع إحداها على كتفي والأخرى على كتف أخي عرّوج، كما تفضل بإكرام من كان معنا من البحارة.

أمضينا الشتاء في تونس وعندما حل الربيع خرجنا في ساعة مباركة في اثني عشر مركبا، فأغرنا على إحدى القلاع بجزيرة صقلية **SİCİLYA** وأسرنا ما يقرب من ثلاثمائة أسير قمنا بتوزيعهم على مراكبنا ليقوموا بالجدف، كما استولى دلي محمد رئيس على إحدى السفن التجارية التي كانت راسية في الميناء. كانت السفينة محمّلة بالسكر، إذ أحصينا ستمائة وخمسين زوجا من صناديق السكر. أمرت دلي محمد رئيس بأن يأخذ هذه الغنائم إلى تونس. وفي اليوم التالي استولينا على أربعة مراكب أخرى، اثنتان منها كانت محملة بالجوخ، بينما كانت إحداها مشحونة بأعمدة شراعية كانت مرسلة إلى فرنسا، أما الرابعة فقد وجدناها

ممتلئة بالبارود، والحاصل أنّها كانت أربع سفن من أفضل الغنائم!!

رجعنا إلى تونس بعد ثلاثة وثلاثين يوما. استولينا خلالها على كميات كبيرة من الجوخ، حتى أننا فرشنا بها أرضية السفينة، كان نصيب كل بحار سبعة قناطير[1] ونصف من السكر واثنتي عشرة لفّة من الجوخ ومائة وخمس وعشرين لفّة من القماش. كما كانت الأعمدة الشراعية التي غنمناها مصنوعة من أجود أنواع الخشب. كانت متينة وطويلة بحيث تصلح أن تستخدم في السفن الطويلة. قررنا إرسال هذه الأعمدة هدية إلى سلطاننا المعظم سليم خان. كما قمنا باختيار مائتي أسير لإرسالهم مع الأعمدة المذكورة. كان من المقرر أن يتولى **محي الدين بيري** رئيس[2] **PİRİ REİS** أخذها إلى إسطنبول. لقد كان محي الدين

---

(1) القنطار : وحدة قياس الأوزان يختلف وزنها بحسب المكان والزمان 1 قنطار عثماني يساوي 56.452 كغ. يدعى بالتركية **Kantar**. انظر: **MEB. Örnekleriyle Türkçe Sözlüğü,c.2,s.1529**.

(2) بيري رئيس بحّار وجغرافي تركي. قدم إلى سواحل غرب البحر المتوسّط رفقة عمّه كمال رئيس لنجدة مسلمي الأندلس، اشتهر بكتابه: «كتاب البحرية» الذي رسم فيه خرائط مفصّلة لسواحل وموانئ البلاد المطلّة على البحر المتوسّط.

ابن أخت المرحوم كمال رئيس[1]، كان صديقا ظريفا عالما عارفا بالآداب السلطانية، غادر بيري رئيس تونس في ساعة مباركة متجها إلى إسطنبول.



(1) كمال رئيس بحّار تركي قاد أسطول أغار به على سواحل إسبانيا بعد سقوط غرناطة بأمر من السلطان بايزيد الثاني، وذلك بعد ما وجّه الأندلسيّون رسالة استغاثة إلى هذا الأخير. كما كان أوّل من قام بنقل عدد كبير من مسلمي ويهود الأندلس وتوطينهم في الأناضول.

نلنا دعاء السلطان فصرنا أعزة في الدارين

غادر بيري رئيس تونس في ست قطع بحرية فوصل إلى إسطنبول في اليوم الحادي والعشرين من خروجه. رسا في الساحل المقابل لسراي بورنو SERAY BORNU محييا السلطان بإطلاق قذائف المدفعية. استقبل السلطان بيري رئيس وتفضل بقراءة رسالتي بنفسه فسُرَّ كثيرا بما قمت به أنا وأخي عرّوج من غزوات. بعد قراءة رسالتي رفع يديه المباركتين بالدعاء لنا ولبحارتنا:

«اللّهم بَيِّض وَجْهَي عبديْك عرّوج وخير الدين في الدنيا والآخرة، اللهم سَدِّد رميتَهما واخذل أعداءهما وانصرهما في البر والبحر».

هكذا نلنا دعاء السلطان فلن نُغلَبَ بعد اليوم. لقد صرنا أعِزَّة في الدارين. أما رفيقنا بيري رئيس فقد لقيَ حفاوة كبيرة من السلطان الذي أكرمه باثني عشر كيس أقجة وألبسه الخلعة السلطانية بنفسه وتفضل بقبول الهدايا التي بعثنا بها إليه والاطلاع عليها بنفسه واحدة واحدة. وبالرغم من أنه حتى الآن لم تتجرَّأ أية سفينة على الاقتراب من الساحل المحاذي للقصر؛ فإن السلطان المعظم أمر بِرُسُوِّ سفن بيري رئيس قريبا من القصر.

أمر بيري رئيس مائتي أسير بحمل الهدايا المرسلة إلى

السلطان على أكتافهم واستعرضهم في طابور منتظم. فخرج مائتا بحّار في ألبسة مزركشة إلى الساحل في استعراض عسكري أمام السلطان، فكافأ سليم خان كلا منهم بخمسين دينارا ذهبيا، وأمر بتأمين كل ما يلزمهم على حساب الدولة. أما محي الدين رئيس فقد خُصِّص له بيت كبير للإقامة فيه.

أمر السلطان بسحب السفن إلى مصنع بناء السفن، فتم دهنها وإصلاح ما عطب منها وتزويدها بما تحتاج إليه من معدّات، كما أمر ببناء سفينتين حربيتين ذات سبعة وعشرين مقعدا من نوع قادرغة، كانت إحداهما ستُهدى إليَّ من السلطان والثانية إلى أخي عرّوج. زُيِّنت مؤخرة السفينتين بطلاء ذهبي، أما ظهرها فقد شحن بكميات كبيرة من القذائف التي كانت تلمع لكونها قد خرجت لتوّها من المصنع.

كما قام بيري رئيس بزيارة الوزراء وقدم لهم الهدايا التي بعثناها إليهم، وذات يوم استدعى السلطان سليم خان بيري رئيس. فلما مَثُل بين يديه سلمه سيفين قد حُلِّيت قبضتهما بالماس. كانت قيمة كل منهما تعادل خراج بلاد الروم[1]، كما سلّمه خِلْعتين سلطانيتين ونيشانين ثم قال له:

(1) لعله يريد أن يقول بأنها ثمينة جدا فاستعمل هذا التعبير للدلالة على ذلك من باب المبالغة.

«ليركبْ خير الدين إحدى السفينتين اللتين سلمتهما لك، وليركب عرّوج الأخرى. وليتَحَلَّ خير الدين بأحد النيشانَيْن وعرّوج بالآخر. وأما السيفان فليتقَلَّدْ خير الدين أحدهما، وليتقلد عرّوج السيف الآخر، وأعلمهما بأننا قد قبلنا هداياهما المرسلة إلى مقامنا السامي. استودعكم الله وأسأله أن يديم عليكم نصره المؤزّر. ومهما تكن لكم من حاجة فإنه يمكنكم عرضها علينا لقضائها».

أخذ بيري رئيس الخط الهمايوني[1] HTTI HUMAYUN، وقبله ثلاثا ووضعه على رأسه ثم سلم منحنيًا في احترام سبع مرات، وقبّل يد السلطان المباركة ثم ودّعه وخرج في غاية السرور والسعادة.

ركب بيري رئيس إحدى السفينتين اللتين تفضل بهما السلطان سليم خان وأمر بقية السفن الأخرى أن تلحق به. ثم سلم على السلطان بعد أن رسا قريبا من سراي بورنو في ثمان قطع بحرية، في حين كان السلطان يتفرج على سفننا من

(1) الخط الهمايوني : الأمر الملكي أو السلطاني الذي يصدره إلى رعاياه أو رجال دولته. انظر :

Abülkadir Yiğit ve diğerleri, Osmalıca- Tükçe Ansiklopedik, Büyük Lügât, İstanbul,2002,s,337.

قصر الساحلي ثم غادر بيري رئيس إسطنبول متجها إلى تونس.

في الوقت الذي كان فيه بيري رئيس في إسطنبول خرجت أنا وأخي في عشرة مراكب، كان مقصدنا الذهاب إلى مضيق سبتة[1] الذي يقع في نهاية البحر المتوسط، على أن نمر من هناك إلى الأندلس لنقوم بإنقاذ من نقدر عليه من إخواننا في الدين. في هذه الأثناء وصل وفد من مدينة بجاية الجزائرية حاملا رسالة جاء فيها:

«إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال. لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الإسبان. فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم. جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار».

في الوقت الذي كنا نهم فيه بالتحرك نحو بجاية إذا ببيري رئيس يدخل السواحل التونسية، فأخذناه بسرعة إلى سفينتنا، وسألناه بلهفة عن أحوال إسطنبول. أما السفينة التي كان يركبها بيري رئيس فإنني بمجرد أن رأيتها حتى كاد عقلي يطير من شدة الإعجاب بها لقد كانت ضخامتها وروعتها توحيان بأنها

---

(1) يعني مضيق جبل طارق الذي يفصل بين سواحل المغرب وسواحل الأندلس (إسبانيا).

مما تفضل به السلطان علينا، فامتلأ قلبي سرورا بذلك.

وعندما قرأت الخط الهمايوني المبارك الذي بعث به السلطان المعظّم سليم خان تضاعف سروري، واغرورقت عيناي بالدموع.

قبّلت الخط الهمايوني سبع مرات ووضعته على رأسي وحمدت الله كثيرا على أن جعلني في خدمة سلطان معظم كهذا. وأما أخي عرّوج فقد غمره الفرح عندما رأى السفينة التي أنعم بها السلطان عليه فدعا له كثيرا على تفضله عليه بهذه السفينة العظيمة.

كان السلطان سليم خان قد أرسل خطا همايونيا إلى سلطان تونس. حملته إليه بنفسي وسلمته له، وبعد أن قبله سبع مرات، وضعه على رأسه ثم فتحه فإذا فيه:

«إلى أمير تونس إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه وإياك أن تقصّر في تقديم أي عون لخادمينا: عرّوج وخير الدين».

وفي احتفال كبير اجتمع أشراف تونس بحضور السلطان، حيث قَلَّدني بيري رئيس سيف السلطان سليم خان وألبسني الحلّة التي أنعم بها علي. أما المشايخ فقد لهجت ألسنتهم بالدعاء للسلطان سليم خان والثناء عليه.

رأى سلطان تونس ما لقيناه من حفاوة السلطان سليم خان، فأدرك بأن السلطان سليم خان بالرغم من أنه قد حرم

أكبر السلاطين من الثناء والتقدير إلا أنه قد خصنا برعايته وإكرامه فتغيرت معاملته لنا وقال لي:

«إن طريقك وطريق أخيك عرّوج سينتهي إلى القيادة العامة لبحرية الدولة العثمانية، فهنيئا لكم بذلك».

منذ هذه اللحظة تغير موقف السلطان منا، وبدأ يبدي لنا خلاف ما يبطن لما كان يجده في نفسه من الحسد، لقد أدرك أننا لم نعد مجرد قراصنة بائسين مجرّدين من أي حماية، بل قد صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني المعظم. وهكذا شرع منذ ذلك الحين في التحفظ منا والابتعاد عنا خوفا من أن نأخذ منه مملكته لحساب السلطان سليم خان.



هجوم عنيف على سفن الأعداء

في اليوم التالي ركبت أنا وأخي السفينتين اللتين وهبهما السلطان لنا، كان في كل سفينة ذات سبعة وعشرين مقعدا ستة عشر مدفعا انطلقنا في اثنتي عشرة قطعة فاستولينا على سفينة محمّلة بالشمع على متنها خمسة وعشرون كافرا، بينهم أربعون أسيرا من إخواننا الأندلسيين، قمنا بتحريرهم جميعا وأرسلناهم مع دلي محمد رئيس في سفينة إلى تونس. كنت أحب دلي محمد رئيس الذي كان شابا شجاعا لا يعرف الخوف أبدا، لو قام بمبارزة خمسة عشر أو عشرين بمفرده لانتصر عليهم.

قدمنا إلى ميناء بجاية الجزائرية في ألفين وثلاثة وثلاثين بحارا وعشرة سفن قادرغة، ومائة وخمسين مدفعا وآلاف الأسرى الذين يقومون بالجدف.

كانت قلعة بجاية في أيدي الكفار الإسبان. اشتبكنا معهم في معركة دامت ثلاث ساعات ونصف، قتل فيها أكثر الكفار. عندما علم أعراب البوادي بانتصارنا في بجاية لحق بنا عشرون ألف رجل منهم لمساعدتنا إلاّ أنهم لم يكونوا يعرفون فنون القتال جيدا. تحصّنت شرذمة من الكفار بالقلعة واستمرت في المقاومة تسعة وعشرين يوما. كنّا على وشك الاستيلاء على القلعة إلا أن عدم امتلاكنا للمدافع التي تستعمل لقصف الحصون حال

دون تمكّننا من فتح ثغرة كبيرة في القلعة.

بلغنا أن قوات إسبانية كبيرة تحرّكت من جزيرة مينورقة في طريقها إلينا، فتركنا بجاية وانسحبنا إلى جيجل لترصد القوات الإسبانية القادمة من مينورقة. وأخيرا لاحت لنا في الأفق عشرة سفن كبيرة من نوع قادرغة. كانت مشحونة بالأسلحة والمعدات العسكرية، فقال أخي عرّوج:

«هذه نعمة ساقها الله إلينا».

هجمنا على السفن الإسبانية بمن معنا من البحارة مردّدين صيحات التهليل والتكبير، واشتبكنا معها في معركة كبيرة أسفرت عن استيلائنا على السفن العشرة، ولم يبق من الجنود الإسبان على قيد الحياة سوى ثمانية وسبعين جنديا أخذناهم أسرى وقيدناهم للعمل في الجدف.



الحرب مع إسبانيا

نشرنا الرايات الصليبية على السفن الإسبانية العشرة وأمرت خمسمائة بحار بالكُمُون فيها واتجهنا بها نحو بجاية. كان الكفار الإسبان المتحصنون بقلعة بجاية ينتظرون القطع البحرية العشرة القادمة من مينورقة لإمدادهم، وعندما رأونا من بعيد حسبوا أننا إخوانهم في الدين فرفعوا قبعاتهم ملوِّحين بها في الهواء تعبيرا عن سرورهم. وهكذا دنونا من القلعة الغارقة في فرحها الكاذب!

فتح الكفار أبواب القلعة وتدفقوا على قصورهم الساحلية لاستقبال السفن التي جاءت لنجدتهم. وفجأة أمرت البحارة بالخروج إلى الساحل، وما إن سمع الكفار صيحات التهليل حتى اضطربت صفوفهم وولّوا منهزمين. فتمكنا من فتح القلعة، بينما راح الإسبان يصرخون بعبارة «ماينا سينيور» طالبين الأمان.

بعد فتح القلعة جاء جميع شيوخ وقواد المناطق المجاورة لبجاية مبايعين لي، ومن هنا انتصبت أنا وأخي مَلِكَيْن على هذه البلاد.

رجعت إلى جيجل لمقابلة أخي عرّوج، وعندما لقيته

الأهمية"[1].

استولينا في هذه الحملة على ثمانمائة برميل من البارود وعدد لا يحصى من الغنائم. سررنا كثيرا بالبارود بصفة خاصة؛ لأن الذي كان لدينا منه قد أوشك على النفاد، ولم يعد سلطان تونس يزوّدنا به، بل لاحظنا إعراضه عنا يوما بعد يوم، فقررنا أن نحل مشاكلنا بأنفسنا. لقد بات أنّه من اللازم علينا أن نؤسس لأنفسنا دولة جديدة في غربتنا هذه.

قامت قيامة الكفار في إسبانيا عندما بلغهم فتحنا لقلعة بجاية، فغرقوا في بحر من الهموم والأحزان. أما ملك أسبانيا كارلوس[2] فقد أصدر أوامره بوجوب تخليص بجاية، وإنقاذ الأسرى من الأتراك في الحال. ومن ناحية أخرى فإن أهالي الجزائر رأوا أن الأتراك قادرين على قصم ظهر الإسبان، إضافة

---

(1) يلاحظ أنّه لم يتمّ فتح بجاية وطرد الإسبان منها بالكامل، إذ لم يتحقّق ذلك إلا في عصر البيلرباي صالح رئيس سنة 1554، والذي يفهم من كلام خير الدين أنّه تمّ فتح قلعة المدينة فقط.

(2) كارلوس هكذا كان يعرف في المصادر التركية، واشتهر في المصادر العربية باسم : شارل الخامس أو شارلكان. ملك أسبانيا وألمانيا. معاصر للسلطان سليمان القانوني. كان أعظم ملوك أوربا في النصف الأول من القرن السادس عشر.

إلى أنهم مقيمون للعدل ويخشون الله.

عندما كنت مع أخي في مدينة جيجل وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، كان أهمها وفد مدينة الجزائر التي كانت تمثل مركز البلاد. كان أهالي الجزائر يشكون من ظلم الإسبان، ويرجون تدخلنا لإنقاذهم، فخرج أخي عرّوج في خمسمائة بحار متجها إلى مدينة الجزائر بعد أن خلّفني في جيجل.

عندما كان أخي عرّوج رئيس في طريقه لفتح الجزائر، غادرت جيجل متجها إلى تونس التي كان سلطانها قد جاهر بعداوته لنا، غير أنه عندما رآني مقبلا في عشرة مراكب بحرية خشي على نفسه وسلطانه فتظاهر بثنائه علينا معتذرا عن تقصيره في حقنا، فقلت له:

«ما منعك من تزويدنا بالبارود؟» أجاب قائلا:

«لم يكن لدي علم بحاجتكم إلى البارود، ولم يخبرني مساعدي بذلك، وقد أمرت بضرب عنقه لأجل ذلك».

أمر السلطان حقيقة بضرب عنق مساعده، لكن ليس لأنه لم يخبره بحاجتنا إلى البارود، بل لسبب آخر. لم أشأ أن أفضحه بذلك، بل تظاهرت بأني قد انخدعت بقوله. تجوّلت مع السلطان على ظهر فَرَسَيْنا في مدينة تونس، ثم عدت إلى المرسى.

كان معي أخي الكبير إسحاق رئيس ومصلح الدين رئيس وكورد أوغلو رئيس ودلي محمد رئيس وغيرهم من مشاهير

البحارة. أعطيت أوامري لرؤساء البحر بالتوجه إلى الغزو في شرق البحر المتوسط ونواحي قبرص والعودة إلى الجزائر، أما أنا فقد رجعت إلى الجزائر برفقة أخي إسحاق.

توجه رؤساء البحر[1] إلى الشرق في سبع قطع بحرية. وفي طريقهم صادفوا الأسطول العثماني مُبحِرا بين قبرص ومصر وقد غطّت سفنه مياه البحر. فرح البحارة كثيرا بهذه المصادفة، وسارع مصلح الدين رئيس إلى الاقتراب من الأسطول. ثم صعد إلى سفينة القيادة حيث مثل بين يدي قبطان داريا[2] جعفر باي. الذي خاطبه قائلا:

«ألا تعلمون أن السلطان موجود في مصر؟ ما الذي منعكم من الاشتراك مع الأسطول الهُمايوني[3]؟».

---

(1) تطلق كلمة رئيس على البحارة العسكريين الأتراك عموما سواء كانوا في خدمة الدولة أم كانوا يقومون بغزوات البحر مستقلين. يسمى بالتركية : «**Levent**». وقد درج المؤرخون والباحثون في التاريخ العثماني على استعمال هذا الاصطلاح. وسوف نجاريهم في استعماله تمييزا عن غيره من الرتب العسكرية الأخرى.

(2) قبطان داريا : القائد العام للأسطول العثماني، وهو أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية.

(3) الأسطول الهمايوني عبارة تفخيم وتعظيم تعني الأسطول العثماني أو السلطاني.

كان مصلح الدين رجلا عاقلا فأجابه بقوله:

«سيدي القبطان: معاذ الله أن نهمل خدمة السلطان، فنحن كما تعلمون في إقليم آخر ولم يكن لدينا علم بالذي تقولون. لو أنكم أرسلتم كلبا من كلابكم لإبلاغنا بخبركم لعجّلنا المسير إليكم سامعين مطيعين دون تأخير. إنّ خدمة الدولة شرف عظيم لنا».

أُعجب قبطان داريا بمقالة مصلح الدين فهنأه على حسن جوابه قائلا:

«لا فضَّ الله فاك».

تَبع مصلح الدين الأسطول الهمايوني في سبع قطع بحرية، ودخل معه ميناء الإسكندرية. في هذه الأثناء كان السلطان سليم معسكرا في القاهرة بعد أن أتم فتح مصر. وما إن بلغه وصول أسطوله إلى الإسكندرية حتى دخل الميناء وأمر بتفتيشه. احتفى السلطان بمصلح الدين وأمده بعدد كبير من الجنود ومعدات الحرب، فأخذ مصلح الدين كل ذلك وعاد بها إلى الجزائر.



انتصار عرّوج رئيس

دامت رحلة مصلح الدين إلى مصر شهرين كاملين. تضاعف سرور أخي رئيس بعودته بسفنه وما بعثه معه السلطان سليم خان من جنود ومدافع. كنت مقيما في جيجل أثناء وجود أخي عرّوج في مدينة الجزائر.

كنا قد أخضعنا قسما كبيرا من البلاد لإرادتنا، فشعر الإسبان المتحصّنون بالقلاع الساحلية بقلق شديد لذلك، فأعدوا أربعين قطعة بحرية ثم قدموا إلى تونس، فرسوا بقلعة حلق الوادي إلاّ أنهم لم يجدوا أحدا غيرنا. وعندما أدركوا أنهم عاجزون عن مهاجمتنا انصرفوا عنا وتوجّهوا إلى مرسى الجزائر. كانت غايتهم افتكاك أكبر ميناء في مدينة الجزائر من أخي عرّوج.

بات أخي عرّوج تلك الليلة ساجدا يدعو الله تعالى أن يَمُنَّ عليه بالنصر. وعند طلوع الشمس جمع بحارته. كان لديه عدد كبير من المجاهدين من العرب والبربر والأندلسيين غير أنهم لم يكونوا يعرفون فنون القتال مثل الأتراك، بل كانوا يلوذون بالفرار عندما يتحرّج موقفهم. كان عددهم يتراوح بين خمسة وستة آلاف مجاهد. قام العدو بإنزال حوالي عشرة آلاف جندي إلى الساحل، كما كان لديه عدد آخر من الجنود على متن سفنه الأربعين.

أمر أخي عرّوج برفع راياته فوق أبراج المدينة وأعد فرقة عسكرية قوية لسحق العدو. وعندما أرخى الليل سدوله خرج عرّوج خفية من أحد أبواب قلعة الجزائر في ثلاثة آلاف مجاهد، وقام بعملية التفاف حول الجبال(1) وعسكر خلف الإسبان. كانت ليلة عاصفة شديدة الظلام عجل الله فيها بتأييده لأوليائه المجاهدين. أما الإسبان فقد كانوا يعانون الأمرَّين من هول العاصفة وظلام الليل الحالك، ولم يتمكّنوا من معرفة تحرك عرّوج رئيس الذي فاجأهم بهجوم مباغت، فلم يستطيعوا أن يعرفوا من أين أتُوا. فتم القضاء عليهم جميعا. في هذا الوقت كانت تهب عاصفة شديدة مصاحبة لهطول وابل من البرَد في حجم بيض الإوز. بدأ الإسبان يقتلون بعضهم بعضا من هول المفاجأة، ثم لم يلبثوا أن قاموا بإنزال جميع من كان في السفن من الجنود إلى البر، فبلغ عددهم ما بين عشرين وثلاثين ألف جندي، لكنهم لم يكن أحدهم يرى الآخر من شدة الظلام. واصل عرّوج رئيس القضاء على فرقهم العسكرية. لقد كانت ملحمة عظيمة انتهت بهزيمة العدو. وفي آخر الليل خرج من قلعة الجزائر ألفا مجاهد آخر، فشرعوا هم أيضا في إبادة القوات الإسبانية. فتم القضاء على الكفار تماما وأُخِذ الباقون أسرى.

---

(1) يقصد الجبال المحيطة بمدينة الجزائر.

أمر الغازي عرّوج بإحصاء الأسرى فكان عددهم ألفين وسبعمائة أسير. أما الشهداء فكان عددهم ثلاثمائة شهيد تم دفنهم في مراسيم رسمية. انتصرت عساكر الإسلام وارتفعت راية الترك وانهزمت إسبانيا التي كانت تعتبر أكبر دولة كافرة أمام أخي عرّوج، ومُرِّغ أنف الملك كارلوس في التراب. سوَّد الله وجوه الكافرين، آمين بحرمة سيد المرسلين.

كتب إليّ أخي عرّوج رسالة يبشرني فيها بهذا النصر المبين. وعندما وصلني كتابه كان معي أخي الكبير إسحاق رئيس، كنا نستعد للخروج إلى الجزائر في عشر قطع بحرية لمساعدة أخي عرّوج، ولما لم تعد ثَمَّةَ حاجة لذلك خرجنا إلى الغزو، فاستولينا على ست عشرة قطعة من سفن الكفار كانت محملة بالبارود والرصاص والألواح والقطران والزيت والرز والقمح. رجعنا إلى جيجل بعد أن مضى على خروجنا تسعة وعشرين يوما، فقمت بتوزيع سفينة من القمح على الفقراء من أموال الغنائم.

ثم وصلني كتاب آخر من أخي عرّوج يأمرني فيه بإلقاء القبض على أحد شيوخ العرب المنافقين، فخرجت في الحال في خمسمائة بحار إلى الجبال حيث ألقيت القبض على الشيخ المنافق، وأمرت بضرب عنقه وعينت شيخا آخر بدلا عنه.

وبعد أن استرحت بضعة أيام ركبت البحر في أكثر من

عشرين سفينة، فوصلنا إلى ميناء الجزائر في ساعة مباركة اجتمعت فيها بأخي عرّوج وإسحاق، فأمضينا وقتا طويلا تبادلنا فيه أطراف الحديث، وعلى هذا النحو قضينا فصل الشتاء.

حل فصل الربيع، وازّيّنت الأرض بمختلف أنواع الأزهار، فغادرت السفن من مراسيها وانطلقت تداعب مياه البحر.

كانت مدينة تنس إحدى مدن الجزائر يرأسها أحد الأمراء العرب. لقد كانت المدينة في وضع لا تحسد عليه من الخلاف والنزاع، فذاق الأهالي من ذلك الأمرّيْن. ولأجل ذلك كان من السهل أن يتسلّط الإسبان على هذه البلدة. كان أخي الغازي عرّوج يرغب في ضم هذه البلدة إلى نفوذه. في هذه الأثناء أرسل ملك إسبانيا كارلوس عشر قطع بحرية متظاهرا برغبته في حماية أمير مدينة تنس، أما قصده الحقيقي فقد كان يتمثل في النيل من المسلمين. هذا؛ وقد كان لسلطان تنس فرقة إسبانية تتولى حمايته، إلا أنها كانت تقوم بنهب كل ما يقع تحت يدها من ممتلكات الأهالي وتحمله في السفن وترسله إلى إسبانيا.

بقي أخواي إسحاق وعرّوج في الجزائر بينما توجهت أنا إلى تنس في عشر سفن فصادفنا أربع سفن إسبانية راسية في الميناء. وما كادت أعين الإسبان تقع علينا حتى انخلعت قلوبهم من شدة الهلع، فتركوا سفنهم وهرعوا إلى القلعة محتمين بأسوارها المنيعة. استولينا على سفنهم ومدافعهم وبنادقهم

بعد أن ولوا هاربين لا يلوون على شيء. أما أنا فقد نزلت إلى البر في ألف وخمسمائة جندي وعسكرت قبالة القلعة. كنت أتوقع مقاومة شديدة، إلا أني وجدت أبواب القلعة مفتوحة. وقد خرج لاستقبالنا بضع مئات من المسلمين مرحبين بنا:

«مرحبا بكم أيها المجاهدون لقد غادر الإسبان القلعة ليلا مع حليفهم أميرنا. ربما كانوا أحد عشر ألفا لقد خرجوا كلهم بمن معهم من رجال الأمير. أما من بقي في المدينة فإنهم لا يرضون بغيركم وغير أخيكم السلطان عرّوج».

ما إن سمعت هذا الخبر حتى بعثت خلف الإسبان وحليفهم أمير تنس ألفي غازٍ ليتعقّبوا الهاربين، فأدركوهم في اليوم التالي، وصاحوا بهم:

«إلى أين المفر أيها الملاحدة المارقون؟ ألا تعلمون أنه لا خلاص لكم اليوم من أيدينا؟».

بعد تبادل إطلاق النار اشتبك الفريقان بالسيوف، فلم يتمكن العدو من تحمل ضربات سيوفنا ونيران بنادقنا التي جعلتهم يتساقطون كالعصافير. انتهت المعركة بأسر ثلاثمائة وخمسين جنديا من الكفار، أما من بقي منهم فقد حصدتهم السيوف. بينما فقدنا سبعين أو ثمانين شهيدا جعل الله مقامهم في الجنة.

استقبلت الغزاة على مشارف قلعة تنس فهنأتهم بالنصر،

واحتسبت الشهداء عند الله ثم أقمنا مدة في تنس. كان نصيب أحدث الغزاة من الغنائم في هذه الغزوة خمسمائة دينار. أما مجموع ما غنمناه فقد كان مائة وخمسين كيلا[1] من الفلفل الأسود وخمسة وسبعين كيلا من القرفة وخمسة وعشرين ألف ذراع من القماش ومثلها من الحرير وأربعمائة كيلا من العسل وستمائة كيلا من عسل الشمع وألف لفّة من الصوف، بالإضافة إلى عدد كبير من المعدات العسكرية.

جعلت أحد الضباط نائبا على تنس ثم ركبت البحر في ساعة مباركة في ست عشرة سفينة، فأتيت الجزائر حيث لقيت أَخَوَيَّ عرّوج وإسحاق، فتعانقنا بحرارة وشوق وهنأني رئيس الغزاة عرّوج بقوله:

«بارك الله في غزوكم يا أخي».

كان أمير تنس الذي لاذ بالفرار ابنا لأخ سلطان تلمسان، لم يعتبر بما لقيه منّا بل سُمع يتفوه بهذه العبارة:

---

(1) في الأصل وردت لفظة «قنطار» آثرنا استبدالها بـ «كيل» للتفريق بين هذه الوحدة والقنطار الذي يتم التعامل به اليوم، والذي يعادل 100 كغ، بينما كان القنطار العثماني يعادل : 56.452 كغ. لمزيد من التفاصيل انظر : **Kamil Kepekçiağlu, Osmnalı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, Ankara, 2003, s 214.**

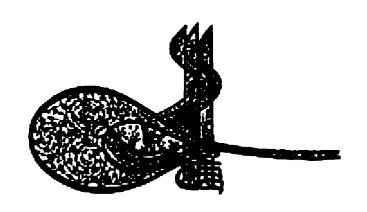
«هنيئا لملك إسبانيا فهو سينتقم لي من هؤلاء الأتراك».

لقد تبين لنا أن هذا الرجل لم يبق في قلبه ذرة من الإسلام، فقد كان يظن أنّ الإسبان قادرين على انتزاع الجزائر من أيدينا وجعله سلطانا عليها، هكذا كان يسبح بخياله في هذا الوهم. ثم علمنا بعد ذلك أن ابن أخ سلطان تلمسان قد استولى على تنس بدعم من الإسبان وبما جمعه حوله من الأعراب، وأن أهالي تنس الذين أنقذناهم من ظلم الإسبان قد رضوه أن يكون أميرا عليهم.

ثارت ثائرة أخي عرّوج حينما بلغه هذا الخبر، فقرر أن يسير بنفسه إليه، فجمع علماء الجزائر وسألهم مستفتيا:

«أيها السادة: ما حكم الشرع فيمن تمالأ مع الكفار الإسبان وبايع ملك إسبانيا الذي سار لقتل إخواننا في الدين، وقابل نصحنا بالكنود؟».

فكان جواب العلماء أن: **«قتله واجب ودمه هدر وماله مباح»**. ثم كتبوا هذه الفتوى وسلّموها لأخي عرّوج.



ضَربُ عُنُق الخائِن

ودَّعَنا أخي عرّوج ثم خرج إلى تنس. وعندما رأى أهالي تنس أن عرّوج قد اقترب من المدينة أدركوا خطورة الأمر فقاموا بتقييد ابن أخي سلطان تلمسان وسلموه إلى عرّوج رئيس وهم يقولون:

«أنت السلطان ونحن عبيدك الذنب منا والعفو منك».

وعلى هذا النحو راحوا يتكلمون بمثل هذه العبارات المنافقة. كان أخي عرّوج رجلا رقيق القلب، يكره النفاق والتلوّن. محسنا عفُوا عامر القلب. ولذلك فقد عفا عن أهالي تنس، ودعا أميرهم وقال له مؤنبا:

«مالك أيها السافل! إن ما فعلته لم يجرؤ أحد من قبلك على فعله، ولن أعير اهتماما بما تشيعه عني من أني قرصان لا همَّ لي إلا قطع الطريق في عرض البحر. أيها الملعون، يا من جعلت نفسك عبدا لسيدك ملك إسبانيا. ألم تعلم أن ملكك هذا قد أعمل السيف في رقاب مئات الآلاف من مسلمي الأندلس؟!! نحن لسنا قراصنة بل مجاهدون نقاتل في سبيل الله ولله الحمد».

ثم أشار على الفور إلى الجلاد أن اضرب عنق الخائن قبل أن يدعو بعدد من رؤساء العرب للمثول بين يديه ليقول لهم:

«كان عليكم أن تشدوا وثاق هذا اللعين وتبعثوا به إليّ عندما جاء إليكم. وما قمتم به بعدما رأيتموني لا يعفيكم من المسؤولية. ألم تبايعوني سلطانا عليكم؟ كيف حنثتم بأيمانكم؟» ثم أمر بضرب أعناقهم أيضا.

عندما رأى التنسيون ذلك أدركوا أن الأمر في غاية الخطورة، فحلفوا جميعا يمين الولاء لعرّوج رئيس وعاهدوه على أنهم لا يرضون بغيره سلطانا عليهم.

كان أخي عرّوج يدرك أن تلمسان هي مصدر جميع الفتن، فقد كانت مدينة كبيرة تقع في أقصى غرب الجزائر على حدود فاس، كما كانت تحكم من طرف أسرة حاكمة منذ أمد بعيد[1].



(1) يعني بها الأسرة الزيانية التي أسّسها يغمراسن ودام حكمها حوالي 300 سنة، قبل أن يقضي عليها البيلرباي صالح رئيس سنة 1555 بعد أن بلغت درجة متقدّمة في الفساد وأصبحت الدولة في يد الإسبان يوجّهون سياستها كيفما يشاءون.

استشهاد عرّوج رئيس

كان سلطان تلمسان ملكا بائسا خاضعا لكفار إسبانيا، أمّا الأهالي فقد كانوا يعانون من ظلم الإسبان، ومن ظلم سلطانهم أيضا. ومنذ مدة طويلة جاء التلمسانيون إلى الجزائر متوسلين إلى أخي عرّوج أن يأخذ لهم حقهم من ظُلّامهم. أما أخي فقد كان عازما على الاستيلاء على تلمسان لكنها كانت بعيدة جدا على أطراف فاس، كما أنها لم تكن بلدة ساحلية يمكن الوصول إليها بواسطة السفن، إضافة إلى ذلك أن السلطان كان له جيش كبير مكون من العرب والإسبان. لقد كانت تلمسان أكبر بلد في الجزائر وفتحها في غاية الصعوبة، وكان معلوما أنه ما لم تفتح تلمسان فإن الجزائر لن تعرف الاستقرار.

في هذه الأثناء ثار أهالي تلمسان ففر السلطان وأرسلوا وفدا إلى أخي عرّوج يبايعونه سلطانا عليهم. سر أخي كثيرا لإعلان دخولهم في ولايته دون قتال.

أحدثت دعوة أهالي تلمسان لعرّوج ليكون سلطانا عليهم فزعا كبيرا في إسبانيا. كان القائد الإسباني الأكبر في إفريقيا مقيما في قلعة وهران التي كان بها أكبر ميناء في غرب الجزائر، كما أنه يقع في مقابل إسبانيا، إضافة إلى أنها كانت بها قلعة حصينة يحميها آلاف الجنود. في هذا الوقت كانت تلمسان خاضعة

لتسلط ونفوذ الإسبان المتحصنين بوهران. وعندما صار أخي عرّوج حاكما لتلمسان أمر بقطع جميع العلاقات مع وهران. ومن جهة ثانية فإن القائد الإسباني كان له عدد كبير من الجنود إلا أنه طلب المدد من إسبانيا.

قرر أخي عرّوج أن يقضي الشتاء في تلمسان. كان معه أربعة آلاف جندي إلا أنه لم يقبل أن تترك قلعة الجزائر التي فتحت حديثا خالية من الجنود طيلة فصل الشتاء. ذلك لأن فقدان مدينة الجزائر سوف يودي في النهاية إلى فقدان جميع البلاد، ولذلك لم يحتفظ معه بسوى ألف جندي في تلمسان.

كان أخي عرّوج يريد أن يسير من تلمسان إلى وهران عندما يحل الربيع. وفي الوقت الذي كان فيه مُعَسْكِرًا في تلمسان كنت أنا في الجزائر، فأرسل إليّ مائة وخمسين حملا من النقود الفضية مع ثلاثة آلاف جندي.

لم يكن الخطر الإسباني وحده الذي يهدد أخي عرّوج في تلمسان فحسب؛ بل كان معرّضا لخطر السلطان الهارب من المدينة، والذي جمع حوله عدداً كبيراً من الأوباش الذين تقاطروا عليه لأجل الإغارة والنهب. ثم راحوا يتحيّنون الفرصة التي تمكنهم من الانقضاض على أخي.

ومن ناحية أخرى كتب السلطان إلى القائد الكافر القابع في وهران خطابا يستحثه فيه أن يمدّه بما يحتاج إليه من جنود

وعتاد قائلا له:

«لقد وقعت في أيدي القراصنة الأتراك ولم أتمكن من استخلاص أموالي من أيديهم، فأين شوكة وعظمة مَلِكِكم؟ هل يُعقل أنكم صِرتم لا تستطيعون أن تخرجوا رؤوسكم خوفا من حفنة من القراصنة؟».

أرسل القائد الإسباني بوهران عشرين ألف دينار إلى سلطان تلمسان وأعلمه بأنه يقوم بإعداد جيش كبير. كان من المقرر أن يخرج هذا القائد بنفسه عندما يحل الربيع من وهران على رأس الجيش (العربي-الإسباني) ويسير به إلى أخي عرّوج في تلمسان. أما سلطان تلمسان فقد جمع حوله عشرين ألفا من البربر مقدما لهم مختلف أنواع الوعود والإغراءات، ثم التحقت به قوات أخرى من وهران مكونة من عشرة آلاف جندي. فتوجهت هذه القوات المكونة من ثلاثين ألف جندي بقيادة قائد حامية وهران الذي كان كلبا في غاية الصَّلَف والغرور !!

أدرك أخي عرّوج استحالة مقاومة هذه القوات في الفضاء المفتوح، فأمر بإخلاء المدينة ثم تحصن بالقلعة، ودخل الكفار مدينة تلمسان فقاموا بفظائع لا يصدقها العقل، ثم ضربوا الحصار على القلعة.

كنت في مدينة الجزائر، وقد علمت أن الأوضاع في تلمسان تزداد سوءا فأعددت قوة من ألف جندي تركي وألفي فارس

عربي وجعلتها تحت إمرة أخي إسحاق رئيس، وطلبت منه أن يعجّل بالمسير إلى عرّوج ليتمكّن من إنجاده، فخرج أخي إسحاق على رأس تلك القوّة يرافقه وكيله ومساعده إسكندر رئيس.

عندما علم عرّوج أن إسحاق رئيس قد خرج لنصرته في قتال الإسبان خرج من القلعة لتوحيد قواتهما، فسقطت تلمسان في يد السلطان، واجتمعت قوات عرّوج بقوات إسحاق، وشرع أخي عرّوج يفكر في وسيلة تمكنه من استعادة تلمسان.

كان سلطان تلمسان آخر ملك في أسرة حكمت المدينة منذ مئات السنين، بل استطاعت في بعض الفترات أن تبسط نفوذها على كل الجزائر، لهذه الاعتبارات لم يكن أخي عرّوج يرغب في حرمان هذه الأسرة من سلطانها وتاجها، بل كان يريدها أن تتخلى عن تحالفها مع الإسبان، وأن ترضى بخضوعها لسلطتنا العليا؛ فإن لم تقبل بهذين الشرطين فإننا سنكون مضطرين لإزالتها من الوجود.

عاد أخي إلى تلمسان في ألفي جندي، فتصدّى له أكثر من عشرة آلاف جندي من الإسبان والعرب. اشتبكت القوتان في معركة عنيفة دامت ثلاث ساعات ونصف، انصبغت فيها السيوف بالدماء وأسفرت المعركة عن مقتل أكثر الكفار، ولم ينج منهم سوى ثلاثمائة أو أربعمائة سيقوا أسرى إلى الجزائر.

أرسل ملك إسبانيا كارلوس فرمانا إلى واليه في وهران

قال له فيه: «إذا كنت تريد أن تحتفظ برأسك فعليك أن تقضي على عرّوج رئيس وجميع من معه من الأتراك. يجب أن ترسل إلي عرّوج حيا إلى إسبانيا. وأنا أعرف القتلة التي أذيقه إياها».

بناء على هذا الفرمان سار حاكم وهران في ثلاثين أو أربعين ألفا إلى أخي عرّوج، ووقعت بينهما معارك كبيرة دامت ثلاثة أشهر، إلا أن أخي لم يستسلم لهم، فجمع الحاكم قواده وقال لهم:

«إن هؤلاء الأتراك قوم في غاية العناد، لا يرضون بالاستسلام حتى ولو هلكوا جميعا. إلى متى نظل ننتظر تحت أسوار هذه القلعة؟ لنرسل إليهم رسولا نعرض عليهم أن يأخذوا أسلحتهم ويدعوا لنا القلعة، فإنهم سيقبلون بذلك إذا نفدت مؤونتهم، أما إن لم تنفذ فإنهم لن يستسلموا إلى أن يهلك آخر رجل فيهم».

في الصباح التالي مَثُل الرسول الإسباني بين يدي عرّوج، فقال أخي لمن معه من الجند بعد انتهاء المقابلة:

«ماذا تقولون أيها الأبناء، فقد استمعتم إلى الرسول؟».

أجاب الجنود قائلين:

«بكل تأكيد الحياة أفضل من الموت، لنخرج إلى الجزائر ثم نعود بعد ذلك لاسترجاع القلعة من جديد، هذا رأينا لكن الأمر يرجع إليك، فأنت أعرف منا بذلك».

رضي عرّوج بتسليم القلعة، فسر الكفار لذلك سرورا

عظيما، لأنهم لم يكن قصدهم ما تم التفاوض بشأنه، بل كانوا يهدفون إلى القضاء على عرّوج ومن معه عند خروجهم من القلعة، ولم تكن لهم أدنى نية للوفاء بما تعهدوا به، فالملك كارلوس لو علم أنهم قد تركوا الأتراك يمضون لحالهم لأمر بضرب عنق والي وهران.

خرج عرّوج من القلعة بمن معه من الجنود الذين كان كثير منهم إما جريحا، وإما منهكا من شدة الجوع وعدم النوم لأيام طويلة، إضافة إلى نفاد ما بأيديهم من سلاح وذخيرة، لكنهم ما كادوا يقطعون مسافة قصيرة حتى أدركتهم فرقة إسبانية مكونة من خمسة عشر إلى عشرين ألف جندي، فقال لهم قائد الفرقة:

«سلموا أسلحتكم ألا يكفي أنكم تمضون أحياء سالمين؟».

فأجابه عرّوج:

«الموت أفضل من تسليم السلاح، ما الموت حتى نخشاه؟ إن المرء يموت مرة واحدة لكن اسمه هو الذي يبقى خالدا !!».

بدأت معركة يائسة، وشرع الجنود الأتراك في مدافعة الكفار، كان أخي يقاتل كل من وصل إليه من الكفار، لكن في كل صولة كان يسقط عدد آخر من الشهداء، فالأتراك لم يكن عددهم يزيد عن ثلاثمائة وأربعين جنديا فقط. ووصل أخي ومن معه إلى النهر فهَمَّ أن يلقي بنفسه فيه، وعبر نصف الأتراك النهر إلا أن الإسبان

تمكنوا من إدراكهم. لم يتحمل أخي صرخات جنوده الذين كانوا يستغيثون به، فقد كان يحبهم كحب الوالد لولده، ولم يجد بدا من الرجوع إليهم.

كان الحزم يقتضي أن ينحاز بمن معه من الجنود إلى الجزائر، ثم يعود بعد أن يستجمع قواته لينتقم لإخوانه، لكن البحارة الأتراك كانوا يدعون عرّوج رئيس: «بابا» فهل يمكن لأب أن يفرّ تاركا أولاده تحت ضربات السيوف؟.

عاد عرّوج إلى الجسر وألقى بنفسه في صفوف الإسبان ضاربا بسيفه كل من لقيه، إلا أن البحارة لم تبق لهم قدرة على القتال، بل بلغ بهم الإنهاك أن أحدهم لم يَعُد قادرا عن حمل السيف. كان ذلك في يوم شديد الحر تشققت فيه شفاههم من شدة العطش.

قَتَل أخي تقريبا مائة إسباني قبل أن يسقط شهيدا، ثم قطعوا رأسه المبارك وبعثوا به إلى الملك كارلوس. أما أخي الكبير إسحاق فكان قد استشهد قبله ببضعة أشهر في قلعة القلاع. كنا أربعة إخوة، شهدت استشهاد ثلاثة منهم. ما أعظم حكمة الله تعالى! فأنا الوحيد الذي لم تُقدَّر لي الشهادة، مما يعني أن إخوتي الثلاثة أفضل مني عند الله. جعل الله مقامهم جميعا في الجنة، آمين بحرمة سيد المرسلين ﷺ.

عندما وصل خبر استشهاد أخي إلى الجزائر قررت أن أعيش

لغاية واحدة هي المضي في نفس الطريق الذي سار فيه أخي، تلك الغاية التي كانت تتمثل في التضييق على الكفار في إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط، فما قيمة الحياة بعد مقتل أخي؟

لم يكن الوقت وقت إظهار الخور والضعف بل لم يكن لنا وقت للبكاء؛ فنحن في إفريقيا لسنا سوى حفنة من الأتراك، يمكن القضاء علينا في رمشة عين. أخذت العديد من الاحتياطات والتدابير، لكن العدو لم يجد قوة تمكنه من القدوم إلى الجزائر.

لقد قضيت ذلك الشتاء في الاستعداد، ولم أكن أعطي لنفسي لحظة فراغ لكي لا أجد وقتا للتفكير في أخي. أما في الليل فقد كان يتراءى لي في منامي، فكنت أستيقظ والحزن يملأ قلبي. كنت أستغرق في العمل لكي ألهي نفسي عن ذلك، فقمت بتصليح وتجديد جميع سفني ومدافعي ومعدّاتي.

كان الإسبان يقولون:

«الشكر لعيسى فقد استرحنا من البلاء الأكبر، والآن يجب أن نتخلص بسرعة من البلاء الأصغر، قبل أن يتحول الثعبان إلى تِنّين».

جاءني رسول من الملك كارلوس ملك إسبانيا ليقول لي:

«لقد مات أخوك وقتل أكثر جنوده فكُسِر جناحك، من تحسب نفسك حتى تقف في وجه أقوى ملك مسيحي بدون أخيك؟ ماذا يمكنك أن تفعل؟ خذ سفنك ورجالك واخرج

من الجزائر فورا، وإياك أن تطأ قدماك أرض إفريقيا مرة أخرى، إن هذا آخر إنذار أوجّهه إليك، سوف أملأ البحر بالسفن وأعود إلى الجزائر قريبا، فإذا تمكنت منك هناك، فلتعلم بأن عاقبتك ستكون وخيمة».

كنت سلطانا على الجزائر، وفي الوقت ذاته كنت عبدا بسيطا لدى آل عثمان بمنصب بايلرباي الجزائر، إلا أنني كنت أُعرَف في أوربا باسم «ملك الجزائر». وعندما خاطبني ملك إسبانيا بهذه الاستخفاف كان من اللازم إيقافه عند حده، ولذلك كتبت له خطابا في غاية الشدة وأرسلته إليه.

عندما استلم ردي عليه أرسل أساطيل سدت الأفق، اشترك فيها ملوك نابولي وصقلية وألمانيا وهولندا وبلجيكا الذين كانوا تابعين لكارلوس. فرست سفنهم قبالة ساحل الجزائر حيث قاموا بإنزال قواتهم إلى البر.

كنت قد استعددت جيدا لفصل الشتاء؛ إذ أني توقعت رد فعله، ولذلك فإنهم ما إن أنزلوا قواتهم حتى قمنا بإعمال السيف في رقاب عدد كبير منهم، بينما استسلم سبعمائة إلى ثمانمائة كافر من أصل عشرين ألفا، وأمّا الباقون فقد لاذوا بالفرار إلى سفنهم؛ بينما عاد ملوك كارلوس وقادته يجرون أذيال الهزيمة بعد أن تمرّغت أنوفهم في تراب الجزائر.

كان من أثر هذه المعركة أن عظم شأن الأتراك في إفريقيا

وشاع أمرنا في كل أنحاء أوربا.

كان في الجزائر ثلاثة عشر ألف أسير، منهم أربعة وعشرون من كبار القباطنة يعرفون عند الإفرنج باسم «أميرال»، وكان ضبطهم أمرا في غاية الصعوبة. ففي إحدى المرات كسروا قيودهم وحاولوا الفرار ولم نتمكن من اعتقالهم وإعادة ضبطهم إلا بعد معركة كبيرة انتهت بمقتل ثلاثمائة منهم.

أمرت بأن تضرب النقود وتُقرأ الخطبة باسم السلطان سليم خان، فقد كان مقصدي أن لا تضرب النقود ولا تقرأ الخطبة باسم أيّ سلطان آخر غير السلطان المعظّم سليم خان.

في هذا الوقت كان سلطان المغرب يعتبر أكبر ملوك العرب في إفريقيا. كنت أعتقد بأنه ما لم يتم إخضاع سلطان المغرب فإنه من المستحيل بسط سيطرة الأتراك على إفريقيا، وذات يوم طلبت حضور عدد من أمراء العرب إلى الجزائر وخاطبتهم قائلا:

«إنّ السلطان المعظم سليم خان الآن هو خليفة رسول الله ﷺ فكيف تسنى لكم أن تتركوا خليفة المسلمين، وسلطان العالم، وتقرؤون الخطبة وتضربون النقود باسم سلطان المغرب..؟!

إن مستقبلكم ومستقبل بلادكم مرهون بضرب السكة باسم السلطان المعظم، والويل لكم إن خالفتم وعصيتم..».

أوفدت حاجي حسين آغا الذي كان أوثق رجالي إلى سيدي السلطان سليم خان، وبعد واحد وعشرين يوما من رحلة بحرية

وصل الآغا إلى لؤلؤة العالم مدينة إسطنبول، فاستقبله السلطان في قصره الساحلي، ووضع حسين آغا بين يدي السلطان الهدايا المتواضعة التي قمت بإتحافه بها، كانت الهدايا يحملها عشرون غلاما إفرنجيا، فتكرم السلطان بقبولها وأبدى إعجابه بها تلطُّفاً وتكَرُّماً منه.

ألبس السلطان الآغا الخِلْعَة السلطانية، وأمر بإكرام قباطنتي وإنزالهم بدور الضيافة الأميرية. وبعد زيارة الآغا للسلطان قام بزيارة بقية أركان الدولة وقدم لهم الهدايا المتواضعة التي بعثتها إليهم.

مكث الآغا في مدينة عرش العالم إسطنبول واحدا وأربعين يوما قضاها قباطنتي في أكل ولهو وصفاء، وعندما أزفت ساعة رحيلهم أمر السلطان أن تمر السفن الجزائرية قريبا من قصره الساحلي لكي يتفرج عليها، فقامت السفن بالاستعراض بين يديه، وهي تطلق قذائفها تحية له. وقبل مغادرته لإسطنبول قام الآغا بزيارة وداع للسلطان. فلما دخل عليه قبّل الأرض بين يديه سبع مرات. وفي هذه الزيارة سلّمه السلطان فرمانا كان قد كتبه بيده، ورد فيه أمر تعييني بيلربايا على الجزائر، ثم سلّمه سيفا مُرَصَّعا وخِلْعَة مُذهَّبة وراية الإمارة، وقال له:

«اسمع أيها الرئيس؛ سلّم هذا السيف لخير الدين باشا ليتقلّدَه بعزة وشرف، وليلبس خلعتي السلطانية، ولتكن رايتي

دائما معه لا تفارقه، دعواتي لكم أن يتولاكم الله بنصره وأن يُبيِّض وجوه جميع خدمي المجاهدين بالجزائر في الدارين، آمين بحرمة سيد المرسلين ﷺ».

عندما غادر حسين آغا إسطنبول، أرسي بسفنه في ميناء قورون **KORON** الواقع جنوب المورة **MORA**. كان بالميناء ثمان قطع بحرية تابعة للبندقية، وعدد لا يحصى من السفن التركية. فقام حسين آغا بزيارة مجاملة لأميرال السفن البندقية، وقال له:

«لقد صارت الجزائر تابعة للسلطان سليم، وسيدي خير الدين باشا بايلربايا عثمانيا عليها، كما أن أسطولنا صار قطعة من الأسطول العثماني، ولذلك فإننا سوف نتحرك وفق الأوامر التي تأتينا من إسطنبول، فإذا كنتم حلفاء لسلطاننا فلا خوف عليكم من سفن الجزائر، أما إذا كنتم أعداء له فنحن سوف نضيق عليكم البحر».

وصل حسين آغا إلى الجزائر في اليوم الثامن لمغادرته لقورون، وهكذا تكون رحلته من إسطنبول إلى الجزائر دامت ستة عشر يوما.

دعوت على الفور حسين آغا ومن معه من القباطنة الذين عادوا من إسطنبول، فلما مثل بين يديّ استلمت منه هدايا السلطان بكل تعظيم وتبجيل، فقبَّلتُها ووضعتها على رأسي

وتقلّدت السيف وارتديت الخلعة السلطانية ونصبت الراية الأميرية في موضع مرتفع على مقربة مني. شعرت بسرور عارم يغمرني، لن يتمكن الإسبان من إزعاجي بعد اليوم، لأن السلطان الكبير سليم خان يسندني من ورائي، فكل ما أطلبه منه لن يتردد في إجابتي بكرمه وعنايته.

في الليل أقمت احتفالا كبيرا وكافأت حسين آغا على حُسن سفارته وأدائه لمهمته على أكمل وجه بتعيينه في منصب كبير بالجزائر.

لم يكن ثمة شك في أن أكبر أعدائنا هم كفار إسبانيا كما كنا في حالة حرب مع أمم كافرة أخرى كالجنويين، إلا أننا منذ استقرارنا بالجزائر كنا مضطرين إلى الانشغال بالأمراء المحليين وأشباههم في الجزائر وتونس والمغرب الذين كانوا مستائين من وجودنا، فالمغرب كان يحكمه سلطان ينتمي إلى أسرة ملكية عريقة إلا أنها فقدت قوتها واستقرارها في الفترة الأخيرة بسبب الحروب الداخلية. ولم يكن في شمال إفريقيا دولة أخرى ذات أهمية غير مملكة المغرب. أما تونس وتلمسان اللتان كان يحكمهما الحفصيون وبنو عبد الوادي فلم يعد لهما أهمية على الإطلاق.

شرع ملوك وأمراء تونس وتلمسان في التحالف مع كفار إسبانيا وحبك المؤمرات ضدنا سرا وعلانية. لقد كانوا يعلمون بأننا سوف نزيحهم عند أول فرصة تتاح لنا، لماذا؟ سوف أوضح

ذلك:

عندما قدمنا من شرق البحر المتوسط إلى غربه نزلنا بتونس باتفاق مع سلطانها الحفصي. وبفضلنا استغنى التونسيون وازدهرت المدن التونسية بعدما كانت خرابا، فصار أهل تونس يعيشون في بحبوحة من النعيم. وبفضلنا أيضا تخلص سلطان تونس من تسلط الإسبان والجنويين، وامتلأت خزينته بالأموال نتيجة للخراج الذي كنا ندفعه له. لقد كنا سعداء به، والله يشهد أننا لم يكن لنا مطمع لا في مملكته ولا في أمواله. وإلا فلو كنا نريد ذلك فقد أتيحت لنا فرص كثيرة كان بإمكاننا أن نقضي عليه فيها لكننا لم نفعل.

في هذه الظروف فتحنا الجزائر وصارت لنا دولة أكبر من تونس ودخلنا في حرب لا هوادة فيها مع أكبر دولة مسيحية. وبمقتضى الإسلام كان على سلطان تونس أن يساندنا في حربنا هذه إلا أنه كان متوجِّساً منا قبل أن ندخل في حماية العثمانيين، وقبل أن نعلن تبعيتنا للسلطان سليم خان.

نحن نعرف بأن آل عثمان أسرة حاكمة لدولة عالمية، وأن سليم خان فتح خلال بضع سنين ممالك هي أكبر من تونس بمائة مرة. لقد كان سلطان تونس يظن بأن سلطاننا المعظم سليم خان يطمع في مملكته الفقيرة، وتجاهل بأن بايلربايات سلطاننا يملكون أراضي أكثر خصوبة من تونس، وألوية عسكرية أكبر من تلك

التي يملكها. فأنا بايلرباي سليم خان انتصرت على ملك إسبانيا الذي كان يحكم نصف أوربا. وهكذا ازدادت الهوة بيننا وبين سلطان تونس.

إن هذا السلطان الذي لم يكن قادرا على مواجهتي بمفرده، ولذلك كان يستعين بالإسبان تارة، ويحرّض الأمراء المحليين ضدي تارة أخرى، وكان على رأس المستجيبين لتحريضه سلطان تلمسان المعزول عن عرش الزيانيين. لقد كان هذا السلطان تابعا لي، إلا أنه لم يكن يتردد في الاتصال بالإسبان والتحالف معهم سرا، وقد وقعت في يدي الرسالة التي بعث بها سلطان تونس إلى سلطان تلمسان، وجاء في هذه الرسالة ما ملخصه:

«إنّ هذا المدعو خير الدين قوي جدا، بل هو أشد بلاء من أخيه عرّوج. ها هو الآن قد استند إلى السلطان سليم خان، ولذلك فلا حد لغروره. لقد وضع في ذهنه التطلع لدولة عالمية تشمل حتى إسبانيا. إنّ السلطان سليم يظن أن خير الدين رجل دولة حقا، فجعله بايلربايا وباشا، وقلّده السيف المرصع والخلعة والسنجق السلطاني، وسمح له أن يجمع من الأناضول ما يحتاج إليه من الرجال والسلاح وغير ذلك من التجهيزات العسكرية. الأحوط لنا هو أن نكون معا يدا واحدة، فلا ندعُ أيَّ تركيٍّ في إفريقيا، فهم خلال عشر سنوات من دخولهم شمال إفريقيا صاروا أسيادا علينا».

لم يُسمع أنّ أحدا انتزع بلدا من آل عثمان

الأمر كلّه لله يعز من يشاء ويذل من يشاء. لقد كان سلطان تونس غافلا عن هذا الأمر الدقيق، وبسبب أخطائه وخطاياه الكثيرة أذله الله. الآن الجزائر تحت سلطتي ولا يمكن لأي قدرة بشرية أن تنتزعها مني؛ لأن هذا البلد ليس ملكا لي بل ملك لسلطاننا المعظم سليم خان. وحتى اليوم لم يسمع أحد بأن بلدا تم انتزاعه من آل عثمان. هذه هي الحقيقة التي يجب الإقرار بها، وكل من أنكرها فإنه إنما يجني على نفسه ويلقي بها في مهاوي الهلاك.

إن أهالي الجزائر يحبوننا وهم يعرفون جيدا قيمة النعمة التي يعيشون في كنفها منذ أن حللنا ببلدهم. فقد استطعنا أن نوحد إمارات وقبائل هذا البلد الكبير، وازدهرت التجارة مرات كثيرة، وأمن المسلمون من ظلم الإسبان، فصاروا أحرارا يسيرون مرفوعي الرؤوس، كل ذلك لأنهم تابعون لأكبر سلاطين الدنيا.

ومع هذا فقد استجابت بعض القبائل لتحريض سلطان تونس، فأرسلت إليها قوة مكونة من ستة آلاف راجل وستة آلاف فارس، فتم تأديب هذه القبائل وجعلها عبرة لغيرها. أما سلطان تلمسان فقد بدأ يتململ بالاتفاق مع سلطان المغرب.

في هذا الوقت كان أهالي تلمسان قد ضاقوا ذرعا بالنزاع على العرش بين أفراد البيت الزياني. أما الإسبان فقد كانوا يتفرجون في نشوة على ما يجري في تلمسان.

وفي إحدى الأيام وصل إلى الجزائر أحد أمراء بني زيان طالبا مساندته ضد أخيه الكبير، فأرسلت معه قوة مكوّنة من ثلاثة آلاف فارس، وألف راجل إلى تلمسان. لقد كان سبب إرسالي هذه القوة هو كون جواسيسي قد أعلموني بأن سلطانها مولاي عبد الله بدأ يثير الناس علينا ويتكلم عنا بسوء. إن هذا السلطان الذي أنقذناه من ظلم الإسبان يستحق أن يعاقب على نكرانه للجميل وإبداء صفحة العداوة لنا. وهكذا فإنه ما إن علم بوصول قواتنا حتى لاذ بالفرار إلى وهران مستغيثا بالإسبان.



نموذج من المعارك البرية للدولة العثمانية ق 16

الاستيلاء على تلمسان

تخلى أعيان تلمسان عن سلطانهم معلنين براءتهم منه قائلين:

«لقد وصل أخو السلطان، الأمير مسعود بقوات وافرة مرسلة من قبل خير الدين، هيا افعل ما بدا لك وانظر في شأن نفسك، فالأمر لا يخصنا».

أدرك السلطان أن عاقبته سوف تكون وخيمة فلم يكن له بُدّ من الفرار إلى نواحي وهران لاجئا عند الإسبان.

أما الأمير مسعود فقد حقق انتصارا باردا لم يرق فيه قطرة دم. وبفضلنا دخل تلمسان وجلس على عرشها، فأكثر من الدعاء لي ولعساكري التي خرجت معه. كان الحزم يقضي بأن لا نثق فيه ولا نطمئن إليه بعد أن بلغ مراده وحقق غايته.

كافأ السلطان عساكري، فأعطى كل غازي منهم خمسة وعشرين دينارا ذهبيا، وكافأ كل رجل من العرب الذين تطوعوا للقتال معه عشرة دنانير ذهبية. أما أنا فقد بعث إليَّ بخمسين ألف دينار قيمة الضريبة السنوية، بالإضافة إلى عدد كبير من الهدايا القيمة تعبيرا عن امتنانه. أرسلت الذهب إلى خزينة الإمارة، وقمت بتوزيع أكثر الهدايا على رؤساء البحر، واحتفظت ببعضها في قصري، ثم كتبت خطابا إلى السلطان مسعود قلت

فيه:

«الآن بفضل سلطاننا جلست على عرش أجدادك، فاحذر مما كان سببا في حرمان أخيك من عرشه، وإياك وظلم المسلمين، ولا تخالف أوامري قيد أنملة، ولا تتأخر عن دفع الخراج السنوي يوما واحدا. ولا أسمعْ عنك أنك أقمت أي علاقة بالإسبان، فهم سوف يقضون عليك عندما يتمكنون منك. وتذكَّر بأن أخويك الكبيرين في وهران لاجئين عند الإسبان. وإذا كنت لا تريد أن ترى أحدا منهما جالسا على عرشك فخذ ما يلزم من تدابير لحماية نفسك وعرشك».

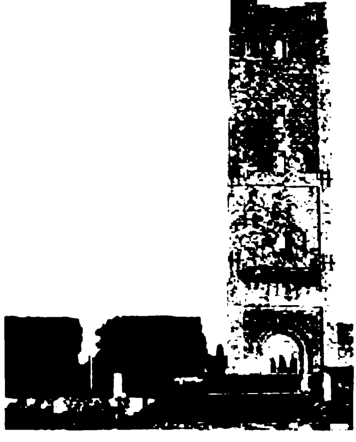
إلا أن مسعودا ما إن جلس على العرش حتى شرع في ظلم الناس ونهب أموالهم بغير حق كما عهد ذلك من آبائه الذين سبقوه إلى العرش، وعلمت أنه عندما قرأ كتابي مزقه إربا إربا. لقد كان غافلا عما ينتظره من عواقب بفعلته تلك، فسمع أخوه الكبير اللاجئ بوهران بها فعله فاتصل بي يقول:

«سيدي السلطان، هل ترون كيف خلعتموني عن عرش آبائي وأجلستم في مكاني كنودا لا يحفظ لكم نعمة ولا يرعى لكم معروفا فها هو قد خرج عليكم. إذا تكرمتم فضلا ومنة منكم بإعادتي إلى عرشي فإني سأكون عبدا مطيعا لكم ما حييت».

لم نكن نرجو من هذا الأمير خيرا مثلما لم نكن نرجوه من أخيه مسعود من قبل، إلا أن السياسة الآن تقضي بأن نعفو عنه

لنضرب به أخاه مسعودا.

في هذا الوقت كنت راسيا باثنين وعشرين سفينة قرابة سواحل مستغانم التي فتحتها دون عناء. كانت مستغانم قريبة من وهران التي كانت بيد الإسبان. وحينها كنت في مستغانم قدم علي الأمير عبد الله فقبّل ردائي بتضرع، فأرسلت معه ألفا من رجالي إلى تلمسان، أما أنا فقد انشغلت بإسكان ألفين ومائتين وخمسة وثمانين مهاجرا أندلسيا في نواحي مستغانم كنت قد حملتهم في سفني من إسبانيا، فوهبت لهم أراضي يقومون باستصلاحها والعمل فيها، لقد كانوا عمالا ماهرين، كل واحد منهم صاحب صنعة يتقنها بمهارة كبيرة.



قلعة المنصورة (تلمسان)

خدعة حربية

علمت أن عبد الله وصل إلى تلمسان وصار حاكما عليها، بينما تحصن أخوه بالقلعة خمسة وعشرين يوما. أدرك البحارة بأن الحصار سوف يطول كثيرا لكونهم لا يملكون مدافع تمكنهم من الاستيلاء على القلعة. تشاوروا فيما بينهم وقالوا:

«لنرفع الحصار ونتظاهر بالفرار، فهؤلاء البدو لا خلاق لهم ولا يميّزون بين النصر والهزيمة. سوف يشيعون بينهم أن الأتراك قد ولّوا هاربين ويدفعهم الحرص على الغنائم إلى تعقبنا، حينها نقضي عليهم ونستولي على القلعة ونسلمها للأمير عبد الله ثم نعود إلى الجزائر».

وهذا ما حدث بالفعل. فقد خرج أنصار مسعود المتحصنين بالقلعة وهم يتصايحون: **«هاهم الأتراك يولّون هاربين !!.»**. وانطلقوا متعقبين البحارة، فما هو إلا أن فاجأهم البحارة بهجوم مباغت قضوا به على أكثرهم.

إن هؤلاء الأعراب لا علم لهم بفن الحرب، ويحسبون أن قتال الجيوش النظامية يشبه أعمال النهب في الصحراء. إن الإسبان العارفين بفنون القتال ذاقوا مرارة الهزيمة مرات عديدة على يد البحارة الأتراك. فلو كان لهؤلاء البدو عقل لما عرّضوا أنفسهم للهلاك.

وفوق ذلك لم يكونوا يعيرون النفس البشرية أي اعتبار. فقد كانوا يعرّضون أنفسهم للقتل بطريقة حمقاء زاعمين بأن ذلك كله: قدر من الله !!.

في الحقيقة كان بينهم شجعان يجيدون الفروسية، إلا أن طريقة ركوبهم للخيل كانت بدائية جدا؛ فضلا عن كونهم لا يملكون أسلحة جيدة، وحتى لو وجدت فهم لا يجيدون استعمالها، كما أنهم لم تكن لهم أسلحة نارية جيدة. والسبب الأول في انهزامهم يرجع إلى كونهم لا يعرفون إطلاقا فنون القتال بشكل جماعي.

هكذا سقطت قلعة تلمسان في يد البحارة، بينما فر السلطان مسعود مع خمسة أو عشرة من رجاله دون أن يعرف أحد مصيرهم. هذه هي عاقبة من لا عقل له، فمن يكون مسعود هذا حتى يتحداني وأنا بايلرباي أعظم سلطان في العالم، وهو يعلم بأنني أنا وأخي عرّوج أسكنه الله فسيح جنانه هزمنا ملك إسبانيا مرات عديدة؟!!.

إن السافل مسعود هذا تخلّى عن ستة آلاف من المقاتلين البدو الذين تحصن بهم في القلعة وهرب منها دون أن يخبرهم، حتى أنهم استمروا في التصدي لبحارتي وهم لا يعلمون بأن سيدهم قد لاذ بالفرار. قبل أن يعلنوا استسلامهم، وقال رؤساؤهم لبحارتي:

«معاذ الله أن نكون قد تعمدنا عصيان سلطان الجزائر خير الدين باشا. فهو سيدنا والأتراك آباؤنا ماذا علينا أن نفعل؟.
لقد حملنا السلاح في وجوهكم خوفا من مسعود الذي كان يهددنا باستدعاء الإسبان، وإلا فمن بيننا من اشترك في غزوات كثيرة مع عرّوج رئيس، سامحونا فمنا الإساءة ومنكم العفو والكرم».

في معركة تلمسان هذه أعمل بحارتي السيف في رقاب خمسة آلاف بدوي متمرد وعفوا عمن ألقوا سلاحهم وأعلنوا استسلامهم وخضوعهم. وفي يوم الجمعة قرئت الخطبة باسم ملك البر والبحر مولانا السلطان سليم خان ونقش اسمه الشريف على السِّكّة.

ودّع البحارة السلطان عبد الله واستأذنوه في الانصراف إلى الجزائر، إلا أن السلطان رجاهم أن يمكثوا مدة أخرى، فأعلموه بأنه لم يؤذن لهم أن يبقوا يوما واحدا بعد تسليم تلمسان إلى سلطانها، وأنهم ملزمون بالعودة إلى الجزائر. وبعد إلحاح السلطان على بقائهم رضوا أن يتركوا له مائة منهم.

أولى السلطان بحارتي رعاية كبيرة؛ فكان يطعمهم مما يأكل، وأما بقية التسعمائة بحار فقد عادوا إلى الجزائر يحملون معهم عشرين ألف دينار مرفوقة بهدايا كثيرة. قرأت الرسالة التي بعث بها السلطان عبد الله، فألفيته قد خطها بأسلوب في غاية

الأدب، قلت لبحارتي مبتسما:

«ها هو الآن ينطق بالحق، فلننظر ماذا يفعل بعد أن يستقر على عرشه، هل سيسلك سيرة أخيه؟».

ضحك الرؤساء لمقالتي هذه؛ بينما رحت أفكر في حل مسألة ابن القاضي بعدما فرغت من أمر تلمسان.

لقد كان ابن القاضي أحد عظماء العرب بالجزائر، كما كان يُكنّ لي قدرا كبيرا من الصدق والمودة. حاول سلطان تونس أن يحرّضه للخروج عليّ إلا أنه لم يوافقه على ذلك ودعاه إلى لزوم الطاعة للأتراك والتبعية لهم. الآن توفي هذا الرجل العاقل وحل عله ولد طائش يدعى ابن القاضي أيضا، فكان أول ما فعله أن اتفق مع سلطان تونس على أن يكونا يدا واحدة ضدي قائلا له:

«لنكن يدا واحدة، ونخرج الأتراك من بلاد العرب».

كانت الرسالة التي بعث بها هذا الولد الشقي إلى سلطان تونس قد وقعت في يدي، وذلك قبل أن يمضي شهران على وفاة والده، ومما جاء في تلك الرسالة:

«لنكن أنا وإياك يدا واحدة لاستئصال شأفة الأتراك، ونطرد خير الدين من الجزائر، فأكون أنا سلطانا عليها في مكانه، وقتها سوف أغدق عليك أموالا طائلة لقد كان والدي يحب الأتراك كثيرا، أما أنا فلا يوجد قوم أبغض إليّ منهم».

عندما وقعت الرسالة التي بعث بها ابن القاضي إلى سلطان تونس في يدي عرفت منها ما كانا يحيكانه من مؤامرات ضدي،

فخرجت لحرب سلطان تونس باثني عشر ألفا من رجالي، ونزلت بسهل مغطى بأشجار البلوط والكستناء. عندما رآني سلطان تونس من بعيد حسبني حليفه ابن القاضي، فأمطرته بوابل من القذائف جعلت قواته تتشتت كحبات العقد، ووقع السلطان في الأسر وجيء به إليّ، فلم أجد بدا من أن أنصحه وأحذره من تكرار فعلته تلك، ثم أمرت بإطلاق سراحه. كنت أعرف أنه سوف يقتلني شر قتلة لو وقعت أسيرا في يديه، إلا أن عفوي عنه وما أظهرته من رفق به جعلت كل أهالي أفريقيا يتعلقون بنا ويزدادون حبّا لنا.

في هذه المعركة استوليت على ثلاثمائة خيمة أمرت بإرسالها إلى الجزائر، بينما أقمت في تلك المنطقة بين خمسة أيام أو عشرة. كان المكان في غاية الروعة، فقد كانت العيون تجري في جميع أطرافه، والطيور تغرد بألحان تأخذ الألباب، استمتعنا فترة من الزمن في ذلك المكان، ثم أعطيت أمري بالتحرك للعودة إلى الجزائر.

كنا نمر عبر ممر شديد الوعورة لا يمكن أن يسير فيه راكبان جنبا إلى جنب، في هذا الوقت كان ابن القاضي قد كَمَنَ لنا هناك هو ورجاله، فلم نشعر إلا وهم يهجمون علينا من كل حدب وصوب. لم أكن أتوقّع أن نقع في مثل هذا الكمين، وهكذا بسبب عدم ملاءمة المكان للقتال مع هول المفاجأة فقدت الكثير من رجالي. دامت المعركة ثلاث ساعات ونصف، تمكنا بعدها من تجاوز الممرّ، واستطعنا أن نصل إلى الجزائر. لقد سقط في

هذه المعركة سبعمائة وخمسون شهيدا من البحارة. وبسبب هذا العذر أخذت على نفسي عهدا أن أنتقم من ابن الحرام هذا المدعو ابن القاضي، ولن أعفو عنه أبدا.

كان تقديرا إلهيا، حيث هَزَمتُ ملك تونس وأسرته. ولم أتمكن من الانتصار على بدوي مثل ابن القاضي...

ففي الوقت الذي كانت فيه فرائص ملوك أوربا ترتعد بمجرد ذكر اسم «بربروس» كانت حركات العصيان تتوالد في الجزائر، لقد بلغ الغرور بابن القاضي حدا لا مزيد عليه، حتى صار يباهي بقوله:

«لقد هزمت خير الدين باشا، وعن قريب سأضرب عنقه إن شاء الله».

بلغني أنه جمع حوله عددا كبيرا من الأعراب وقبض على خمسمائة أسير تركي قام بتقييدهم بالسلاسل الثقيلة، وربطهم بالرحى وجعلهم يدورون حولها وهم مقيّدون، فكتبت إليه أن يطلق سراحهم، وإلا فإن عاقبته سوف تكون وخيمة. لم يجب طلبي، بل راح يُسَوِّف مدة قبل أن يعلمني صراحة بأنه لن يفك أسرهم لأنهم سوف يثأرون منه عندما يبلغون مأمنهم.

ومن جانب آخر راح يرسل إلى كل النواحي يجمع الناس ويدعوهم إلى التمرد قائلا:

«ما الذي جاء بالأتراك إلى الجزائر؟ هذه بلاد العرب لنجتمع ونتخلص منهم جميعا».

بحّار خائن

استجاب بعض المغفلين الناكرين لجميل إنقاذهم من رقّ الإسبان. في هذا الوقت كان لدي اثني عشر ألفا من البحارة الأتراك معظمهم في عرض البحر. لقد كان عليّ أن أحتاط لأيّ غارة يمكن أن يشنها النصارى، ولأجل هذا لم يكن بوسعي أن أجمع كل رجالي وأرسلهم لقمع الثائرين. في ظل هذه الظروف خُيِّل لبعض الأتراك الذين كانوا في صفوفنا بأنه لا يمكنني أن أحتفظ بالجزائر. ومن هؤلاء أحد البحارة الأغرار يدعى قارة حسن. لقد حدثته نفسه أن ينقلب علي ويجلس في مكاني، وأوهمه عقله الصغير بأنه بمقدوره أن يفعل ما عجزت عنه أنا. وعندما بلغني بأنه قد راسل ابن القاضي قمت بطرده.

شعرت بحالة من الفتور وقلت يجب أن أعطي لأهل الجزائر درسا لن ينسوه. فابن القاضي كان مُتَلَهِّفا ليكون سلطانا على الجزائر، إلا أنني لو تركت الجزائر فإنها سوف تتمزق مرة أخرى إلى ألف قطعة، كل منها سوف تترامى في أحضان الإسبان واحدة تلو الأخرى. فلا ابن القاضي يملك القدرة على توحيد الجزائر ولا هو يملك العقل والشجاعة ولا الجيوش التي تمكنه من التصدي للإسبان، ليس هذا فحسب؛ بل لم يكن لديه لا أسطولا ولا حتّى سفينة واحدة. ترى عندما تملأ أساطيل الكفار

الأفق كيف له أن يرفع رأسه؟!

قبل قدومنا كانت عادة الأهالي عندما يرون الكفار يتفرقون كأسراب الطير في السماء. فمنذ أكثر من مئة سنة لم يكن في الجزائر دولة ولا حكومة. لقد كان الكفار يعرفون هذا ولأجل ذلك استولوا على أحسن الموانئ الجزائرية. والآن فإن كل ما بنيناه يوشك أن يذهب في لمح البصر بسبب حفنة من المعتوهين. إن الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي حدث في البلاد بسببنا سوف يختفي بمجرد مغادرتنا للجزائر، إلا أن أصحاب العقول الصغير كانوا غافلين عن هذه الحقيقة. فكرت في أن أترك الجزائر مدة من الزمن وأتحصن في بعض المناطق البعيدة أنشغل خلالها بالقرصنة، ولا أتدخل في أي من الأعمال المتعلقة بالبر، وأنظر كيف سينظم الجزائريون أمورهم، وكيف يؤمّنون قوتهم، وكيف يدافعون عن بلادهم؟!

كنت متأكدا بأنهم سوف يفعلون مثلما فعلوا قبل سنوات مضت. سوف يرسلون رسولا يرجوني بضراعة -نيابة عنهم- أن أرجع إلى الجزائر. وقتها سوف أرجع إلى الجزائر ولن تقدر أي قوة على إخراجي منها مرة أخرى، وحينها سيتأكد لهم بأن إدارة الجيش والدولة أمران خاصان بالأتراك.



ثورة ابن القاضي

وفي النهاية هبت العاصفة وشن ابن القاضي هجوما كبيرا بجيش قوامه أربعون ألف رجل. كنت متأهبا لذلك لأنني توقعت مثل هذا الهجوم من قبل، بل كان لدي جواسيسي في مجلس ابن القاضي نفسه، وكل ما يقال، وما يراد فعله كان يصلني أولا بأول.

قمت بإرسال عشرة آلاف بحار للتصدي للثائرين. فاشتبكوا معهم في معركة كبيرة دامت حتى العصر، فقدت في تلك المعركة ألفي شهيد وألفي جريح. إلا أن المعركة انتهت بالقضاء على العصاة عن بكرة أبيهم، ولم ينج منهم سوى سبعمائة ثائر. أما بقيتهم فقد تم قتلهم أو أسرهم، وكان على رأس الثائرين الذين وقعوا في الأسر شيخ مدينة الجزائر، أمرت بإعدامه وقطع جسده اللعين إلى أربع قطع، وتعليق كل منها على باب من أبواب المدينة ليكون عبرة لغيره !...

وبعد إخماد الثورة أتيت بمائة وخمسة وثمانين من رؤساء الفتنة مقيدي الأيدي فجمعت علماء الجزائر وقلت لهم:

«سادتي المشايخ، ما حكم هؤلاء الأسرى في ديننا وشريعتنا؟»

أجاب أحد العلماء الطاعنين في السن قائلا:

«إن حكم الشرع في حق الخارجين عليك وعلى عساكرك هو الموت، لأنك تمثل في هذا البلد ملك البر والبحر مولانا السلطان سليمان خان، فأنت أمير أمرائه، وزيادة على آلائك التي تفضلت بها على بلدنا، فإنك قمت بإنقاذ رقابنا من ذل التبعية للكفار وظلمهم، وكنت سببا في مضاعفة خير وبركة بلدنا بما فتحه الله على يديك من أسباب الرزق والرفاهية، ورأينا في عهدك وعهد أخيك المرحوم عرّوج رئيس من حسن الإدارة والتدبير ما لم نره من قبل. والآن هؤلاء المائة وخمسة وثمانون بائسا قد خُدِعُوا بأماني معسولة ألقاها إليهم بعض المفسدين فارتكبوا جرما عظيما. إلا أن من بينهم كثير من الغزاة الذين تَصَدَّوا لكفار إسبانيا، واليوم قد أخطؤوا وأساءوا. فإن كان ثمة مجال للعفو فاعف عنهم، واقبل اعتذارهم وتبعيتهم لك. فالعفو عند المقدرة هو عين المروءة والشرف».

التفتُّ إلى رؤساء البحر وقلت:

«وأنتم ماذا ترون؟»

فتكلم أحد الرؤساء قائلا:

«سيدي الباشا.. أنت أعلم بهذا الأمر منا، فنحن لسنا علماء دين إنما نحن جنود مقاتلون مسؤولون أمام سلطان العالم المعظم بإسطنبول، وملزمون أن تكون جميع حركاتنا مبنية على هذا

الأساس، فليس هذا أوان العفو واللطف!.. تُرَى ما الذي كان سيفعله بنا هؤلاء العصاة لو تمكنوا منا؟!

لقد ثبت باعترافهم ما اقترفوه من جرم، فلو عفونا عنهم سوف يكون هذا مَثَل السَّوْءِ للآخرين. نحن هنا في شمال إفريقيا لسنا سوى حفنة من الأتراك متناثرين في بلد أكبر أضعاف المرات من الأناضول، محاولين ضبطه ببضعة آلاف من الأتراك. وفي ذات الوقت نتصدى لإسبانيا التي تعد أكبر بلد في أوربا. أرى أنه من الحزم أن تأمر بضرب أعناقهم ليكونوا عبرة لغيرهم».



وغادرت الجزائر

ترجَّحَ لديَّ أن ما قاله ذلك الرئيس هو عين الصواب، فأمرت بضرب أعناق زعماء التمرد دون أن نمد أيدينا لأموالهم وأملاكهم. حزنت كثيرا لإصدار هذا الأمر ولم أستطع النوم في تلك الليلة إلا أن حماية الدولة كانت تقتضي ذلك.

إن هذا البلد الكبير لا يمكننا أن نحكمه بالشدة، وبموقفنا الحازم هذا نكون قد أثرنا الرعب في قلوب العصاة. فلن تُسوِّل لهم أنفسهم بشق عصا الطاعة مرة أخرى ولو إلى حين. إلا أن هذا الموقف لم يكن يبعث على الارتياح على مستقبلنا، فأهالي هذا البلد لا يرغبون فينا وليسوا سعداء بوجودنا فالأنسب لنا هو أن نجمع أمرنا وننسحب.

يكفي أن نحظى بمساندة الأهالي. أما إذا بدا أنهم ليسوا سعداء بوجودنا فتركنا لهذه الديار يصبح أمرا لازما. كنت أفكر في هذا الأمر منذ زمن بعيد، ولأجل ذلك اتخذت قراري بشكل قطعي. كنت أدرك بأننا عندما ننسحب لن يتمكن العرب من إدارة الجزائر، وفضلا عن عدم قدرتهم على التصدي للإسبان، فإن انسحابنا سوف يلحق أضرارا بالغة بالحركة التجارية التي يمتد أثرها إلى الجميع.

كنت على يقين من أن العرب سوف ينشغلون ببعضهم

بعد انسحابي، وأن الأهالي سيلقون عنتا كبيرا من جرَّاء ذلك. ثم لا يجدون بعد ذلك حيلة تخرجهم من ورطتهم سوى اللّجوء إليّ مرة أخرى راجين مني العودة لحكم البلاد. كنت واثقا من ذلك ثقتي في إيماني واعتقادي.

في تلك الليلة رأيت الخِضْرَ عليه السلام في منامي فتفاءلت خيرا بتلك الرؤيا وخالجني شعور بأن ذلك إشارة إلى صواب القرار الذي اتخذته.

وذات صباح حملت بحارتي وعائلاتهم وأموالهم في سفني الخمسة وعشرين التي كانت راسية في المرسى، وأرسلت إلى بقية السفن التي خرجت للغزو أو تلك التي كانت في عرض البحر أن تتوجه إلى ميناء جيجل بدلا من ميناء الجزائر.

تدفق جميع أهالي مدينة الجزائر إلى المرسى، فقد حسبوا أننا خارجون للغزو في سواحل إسبانيا، إلا أنهم عندما رأونا قد حملنا نساءنا وأموالنا في السفن أصيبوا بدهشة كبيرة.

خيّمت أجواء من الحزن والكآبة على قلوب عدد كبير من الأهالي بسبب عزمنا على مغادرة الجزائر. وعندما شرعنا في ركوب سفننا تعالت أصواتهم بالبكاء وهم يقولون:

«إذا جاء الإسبان غدا، فمن يحمينا منهم؟!»، ثم شرعوا في الدعاء على ابن القاضي الذي أصيب بالذعر هو الآخر فكتب إليَّ يعتذر عن عصيانه وتمرده، طالبا بكل وقاحة أن أعفو عنه

مثلما يعفو الوالد عن ولده العاقّ !!.

لم أقبل اعتذاره وقلت لرسوله:

«ها هي مفاتيح قلعة الجزائر سلّمها لسيّدك المتلهف على السلطان والملك. وليأت إلى الجزائر وليستمتع بالجلوس على عرشها بعد أن ولغ في دماء المسلمين، ولننظر كيف يدير أمور البلاد».

لم يكن الجزائريون خائفين من الإسبان فحسب؛ بل كانوا خائفين من السلطان سليمان خان أيضا. فهم لم يرضوا بالبايلرباي الذي ولاّه السلطان عليهم، فما الذي سيفعله بهم السلطان يا ترى؟!.

أرسل الأهالي وفدا كبيرا من العلماء إلى سفينتي، فلما حضروا رَجَوني أن أصرف النظر عن فكرة الرحيل وأبقى في الجزائر. لم أتراجع عن قراري إلا أنني اعتذرت إليهم بلطف ولين جبرا لخاطرهم فغادروا سفينتي وقلوبهم تعتصر أسى.

بعد رحلة دامت يوما كاملا وصلنا إلى جيجل التي كان بها مرسى جميل يتربع على ساحل الجزائر. كانت جيجل أول قلعة فتحتها أنا وأخي عرّوج رئيس.

عندما علم أهالي جيجل بقدومنا للاستقرار بها أقاموا احتفالا كبيرا فرحا بقدومنا. فالآن جميع الثروات والأموال التي كانت تتدفق على مدينة الجزائر سوف تتدفق على جيجل. في

اليوم التالي وصل إلى جيجل شيوخ القبائل وأعيانها من الجزائر بل حتى من تونس. قَبَّلوا يَدِي وأعلنوا خضوعهم وتبعيتهم لمولانا السلطان سليمان خان، وأنهم سامعون مطيعون لما يأمر به. ثم دفعوا إليّ الخراج السنوي وأعلموني بأنهم حاضرون لإمدادي بما أحتاج إليه من رجال وقالوا:

«معاذ الله أن نكون قد شققنا عصا الطاعة لمولانا.. فنحن لا نرضى أن تنسب إلينا هذه اللوثة. إننا معتزون بتبعيتنا للسلطان سليمان خان. ولا صلة لنا بما جرى في الجزائر من تمرد وعصيان».

لم أُطِل المكوث في جيجل بل عَجَّلتُ بالخروج للغزو. فوصلت إلى سواحل صقلية وقصفت حاضرتها باليرمو PALIRMO . استوليت خلال ذلك على تسع قطع بحرية من سفن الكفار. كانت تحتوي على أربعين مخزنا مشحونا بالقمح والشعير والزيتون وزيت الزيتون والخبز الجاف والألواح والفول والرز والقهوة والقماش والرصاص.

أقمت في جيجل عددا من الثكنات والمنازل. وبعت ستة وثلاثين ألف كيل من القمح بأسعار رخيصة جدا للخبازين. كما قمت ببناء مصنع صغير لبناء السفن.

في نفس الصيف أرسلت سفني للغزو مرة أخرى. فتوجهت إلى خليج البندقية حيث استولت هناك على ثلاث سفن تبين أن كُلاًّ منها تحمل عشرة آلاف دوقة ذهبية. بالإضافة إلى المئات

من الأسرى، كان من بينهم ستون أسيرا مسلما أمرت بإطلاق سراحهم فورا. دامت هذه الغزوة ثلاثة وعشرين يوما، وفي اليوم الرابع والعشرين رست سُفُني بمرسى جيجل حيث أمرت بتوزيع حمولة أحدى السفن على الفقراء وبيع حمولة السفن الباقية. فكانت حصة كل بحار مائة وخمسة وثمانين دوقة ذهبية[1] وأربع بنادق وخمسة مسدسات وثمانية قناطير ونصف من الحديد وسبعة عشر طيّة قماش بندقي[2]، مع مائتين وخمسة وعشرين طيّة قماش أخرى.

كانت الغنائم من الكثرة بحيث جعلت التجار وأصحاب السفن يتقاطرون على جيجل لشرائها. أما أنا فقد صنعت لنفسي سفينة ذات ستة وعشرين مجدافا. كانت كبيرة وسريعة الحركة. وقمت بدفعها لتشترك في سباق بقية السفن فسبقتها جميعا.

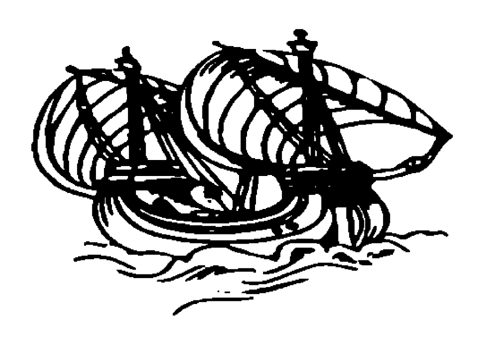
عندما حل الشتاء سحبت السفن إلى البر. ولما حلّ الربيع شرعنا في دهنها وتجهيزها وإصلاحها. ثم خرجت للغزو في خمس عشرة قطعة. فدخلت أولا خليج جنوة ومكثت هناك أربعة عشر يوما أُغيرُ على سواحلها. استوليت خلال تلك الفترة

(1) دوقة Duka عملة ذهبية إيطالية، كانت تستعمل في البلدان المطلة على البحر المتوسط في عصر خير الدين بربروس.

(2) نسبة إلى مدينة البندقية الإيطالية.

على واحد وعشرين سفينة، أمرت بإرسالها جميعا إلى جيجل. وبعد ذلك تجاوزت مضيق ماسينا MESSİNA ودخلت خليج البندقية فلمحت أسطولا صغيرا من ثلاث سفن تنطلق كالسهم هاربة منا. فتعقبتها حتى أدركتها فإذا بها سفن سنان رئيس.

صعد سنان رئيس إلى سفينتي فقبل يدي وبكى من شدة الفرح. لقد مضى زمن طويل لم نلتق فيه. ثم تعقبني بسفنه حتى خرجنا من خليج البندقية. استولينا في أثناء ذلك على تسع قطع بحرية كافرة أخرى. وهكذا بلغ عدد القطع البحرية التي غنمناها ثلاثون سفينة. كان بعضها مشحونا بالقماش وبعضها بالإبريسَم[1] وبعضها بالعسل وبعضها بالقمح وبعضها بالفلفل؛ بينما كانت إحداها مشحونة بالمقاتلين.



(1) كلمة فارسية معرّبة تعني الحرير الخالص.

تذمُّر في الجزائر

في هذه الأثناء وصل قورد أوغلو رئيس -الذي كان أحد رؤساء البحر التابعين لي- إلى جيجل ومعه ثلاث قطع بحرية. فدفع إليّ عشرة آلاف دوقة ذهبية أرسلتها إلى الخزينة. في تلك الأيام لم يكن يمضي أسبوع دون أن يأتي رؤساء البحر إلى مرسى جيجل بسفينة من سفن الكفار التي يستولون عليها.

في هذا الوقت كانت الوفود تتوالى علينا من الجزائر. فقد عرف الأهالي قدرنا جيدا خلال فترة قصيرة لمغادرتنا للمدينة. لقد اختل نظام الأمن وتدهورت الأوضاع في المدينة، فتضاعفت نتيجة لذلك مشاعر التذمر من ابن القاضي. في النهاية شكّل الأهالي وفدا ليكلم ابن القاضي فأتوه وقالوا له:

«نعتقد بأن استدعاء خير الدين باشا فيه خير لنا جميعا. فقد بلغ به الكمال أن غادر المدينة من أجل أن يعيش أهلها في أمن وسلام. فهل يوجد أحد فعل مثل هذا من قبل؟. لقد جئناك راجين أن تسمح لنا بدعوة خير الدين من جيجل وتنصرف أنت إلى قبيلتك».

فأجابهم ابن القاضي قائلا:

«أيها الحمقى! ألا تدرون أن خير الدين ترك المدينة خوفا مني؟!».

لم يتحمل قارة حسن -الذي كان بحارا عندي قبل أن أطرده من خدمتي- ادعاء ابن القاضي فقال:

«مولاي السلطان.. إن خير الدين الذي أعرفه لا يخاف أحدا غير الله. فلا تظن أنه ترك المدينة خوفا من هذا أو ذاك. فهو إنما فعل ذلك لأمر في نفسه. إلا أنه بكل تأكيد لم يترك المدينة خوفا منك».

اغتاظ ابن القاضي لمقالة حسن قارة. إلا أنه لم يكن قادرا على أن يمسه بسوء. فأمر في الحين بضرب عنق زعيم الوفد الذي اقترح عليه دعوتي إلى مدينة الجزائر. لقد كان ذلك الزعيم عالم دين عربي.

كانت هذه الحوادث توحي بقرب عودتنا إلى الجزائر. ومع ذلك كان من اللازم أن نتريث قليلا إلى أن تتجه الأوضاع كلية لصالحنا. فقد كان نفوذ ابن القاضي يتلاشى يوما فيوما. ومع مرور الزمن كانت قيمته وأهميته تتلاشى بين الأهالي.

كانت مدينة الجزائر تُدار فعليا من طرف قارة حسن الذي كانت له بضعة سفن راسية في الميناء. غير أنه لم يكن يستطيع الخروج للغزو لأنه لم يكن لديه بحارة. وهكذا خلال فترة قصيرة من الزمن بُليت تلك السفن لاحتياجها إلى عناية كبيرة. وما لم تتم صيانتها فإنها ستتعرض للبلى والقِدَم، مما يؤدي إلى ركود التجارة في المدينة تبعا لذلك.

مضت ثلاثة أعوام على مغادرتنا لمدينة الجزائر. تضاعفت خلالها الوفود التي كانت جميعها تطلب منا العودة إلى الجزائر.

في هذه الأثناء خرج سنان رئيس في تسع قطع بحرية للغزو. فاستولى على اثنتي عشرة سفينة كافرة، وتوغل في مضيق جبل طارق حتى أغار على السواحل الجنوبية لإسبانيا وقام بإنقاذ ثمانمائة أندلسي من مظالم الإسبان. حملهم جميعا في سفنه وقدم بهم إلى الجزائر. فأمرت لهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤونة ولوازم تيسر لهم سبيل الاستقرار بالجزائر.

ذات يوم رأيت سنان رئيس مُستاءً فقلت له:

«سنان.. خيرا إن شاء الله.. ما الأمر؟».

قال: «ما الذي تتوقع أن يكون يا باشا؟.. لا أكاد أطيق نفسي مما يجري.. فأنت وأخوك عرّوج رئيس، أسكنه الله فسيح جنانه، بذلتم جهودا مضنية وتضحيات كبيرة لأخذ الجزائر. وبعد أن تمكنتم من ذلك، ها هو أجمل مرسى في شمال إفريقيا بيد أعرابي كنود لا يعرف كيف ينتفع به لنفسه ولا يدعنا نستخدمه. بينما أنا عائد من الأندلس، بدا لي أن أرسو بميناء الجزائر، فاستقبلني بقذائف المدافع. لقد كنت قادرا على إسكات مدافعه تلك، والاستيلاء على المدينة دون عناء. لكنني خشيت أن تغضب علي، فلم أتجرأ على ذلك. والآن ائذن لي أن أطرد هذا الكلب المدعو بـ«ابن القاضي» ونستقر في الجزائر مثلما كنا من قبل!».

بربروس في الجزائر مرة أخرى

لم يتوقف أهالي الجزائر عن إرسال الوفود إلينا. في الأخير دعوت سنان رئيس وقلت له:

«اسمع يا رئيس يبدو أن الطريق إلى الجزائر قد تمهد لنا. فهذا الشتاء يجب أن يكون آخر فصل نقضيه في جيجل. بإذن الله سنمضي إلى مدينة الجزائر مع حلول الربيع. إن ابن القاضي لم يبق له أحد يرضى به في المدينة. ها أنت ترى أنه لا يمضي أسبوع دون أن يصلنا فيه وفد من الجزائر يرجو قدومنا عليهم. إن الدلال الزائد يُضْجِر العاشق. علينا أن نضرب الحديد ما دام ساخنا. لقد حان أوان عودتنا، ولأجل ذلك سأتركك هنا تخلُفُني في أهلي وسفني وبحارتي. أما أنا فسأمضي إلى الجزائر. فإذا دخلتها أرسلت إليك بما يجب أن تفعله».

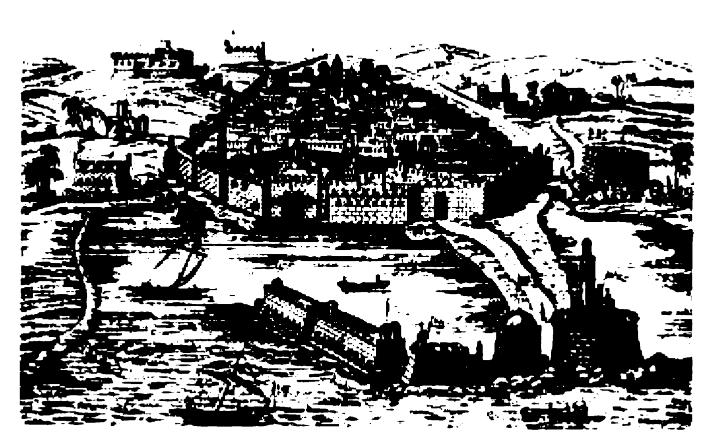
أجاب سنان رئيس: **«سمعا وطاعة يا باشا»**. قال ذلك وخرج..

عملت كثيرا في ذلك الشتاء. فقد قمت خلال ذلك بتجهيز سفني وإصلاح مدافعي. مضت الأيام سريعة ولم نشعر حتى حل الربيع حيث ازيّنت بأكاليل الزهور. وشرعت الوفود تصل إلينا من الجزائر وغيرها المناطق الأخرى. كانوا كلهم يتوسلون إليّ أن أعود إلى الجزائر وأتولى إدارتها من جديد. وكان من بينها

وفد أهدى لي فرسا شقراء يعجز اللسان عن وصف جمالها، فقبلتها منهم بامتنان كبير.

تحرّكت من جيجل في اثني عشر ألف بحار. منهم أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل. ولم أترك مع سنان رئيس في جيجل سوى ثلاثمائة بحار. وفي الطريق التحق بنا آلاف من فرسان الأرياف المجاورة. كلهم كانوا يريدون أن يشتركوا معنا في دخول الجزائر.

عندما اقتربنا من المدينة تعرض لنا رجال ابن القاضي. ولكي ألقي الرعب في قلبه وقلوب رجاله أمرت على الفور بالتصدي لهم حيث أسفرت المعركة عن مقتل ثمانمائة منهم.



مدينة الجزائر في القرن 16

مقتل ابن القاضي

تجمد الدم في عروق ابن القاضي عندما علم باقترابنا من الجزائر. لقد كان لديه اثنا عشر ألف فارس وثمانية آلاف راجل. إلا أنه كان يشك في رغبتهم أو قدرتهم على التصدي لنا. وحتى لو حملوا السلاح في وجوهنا فإن هذه القوة لا يمكنها أن تمنعنا من الاستيلاء على الجزائر. ومع هذا فقد حاول ابن القاضي أن يجرب حظه العاثر.

وهكذا ففي إحدى الليالي أغار على ثلاث معسكرات لنا كنا قد نصبناها في طريقنا إلى الجزائر. فكانت النتيجة أنه فقد مائة وخمسة وثمانين من رجاله وسبعة وتسعين من خيوله بينما لم يقتل أي أحد من رجالي. وعندما طلع الصباح أعاد ابن القاضي هجومه علينا مرة أخرى. فكان رجاله يتظاهرون بالقتال بينما هم في الحقيقة كانوا يفرون هنا وهناك لائذين بأعالي الجبال طالبين النجاة.

دام هذا القتال الغريب حتى المساء، حيث قُتِل قائده قارة حسن -الذي كان أحد بحارتي ثم تمرد علي ولحق به-. فلم يبق لابن القاضي أي مجال للنجاة. وعندما كان يهم بالفرار طعنه أحد شيوخ العرب برمحه حتى خرجت من ظهره. ثم أمر الشيخ بقطع رأسه وأرسله إليّ!!.

وهبت الفرس التي كان يركبها ابن القاضي لذلك الشيخ مع مائة دوقة ذهبية. لقد كانت تلك الفرس ذات قيمة كبيرة إذ أنها لا تقلّ عن ألف دوقة.

عندما قتل ابن القاضي ألقى رجاله أسلحتهم وانبطحوا على الأرض تعبيرا عن استسلامهم. لم يكن لمعاقبة هؤلاء البائسين أي معنى. فعفوت عنهم ومضوا لحال سبيلهم؛ بينما توسل إليّ بعضهم أن أقبل انضمامهم لخدمتي فوافقت على ذلك.

لم يكن هؤلاء العرب يعرفون النظام ولا الطاعة. فهم لم يعيشوا في كنف دولة ينتسبون إليها. هكذا جاءوا وهكذا كانوا يقضون حياتهم. غير أن بعض بحارتي الذين قدموا من الأناضول كانوا قد التحقوا بخدمة ابن القاضي، فسودوا بخيانتهم تلك وجه الأتراك. بعد هلاك ابن القاضي جاءوا جميعا ووقفوا بين يدي مطأطئي الرؤوس جامعين أيديهم على صدورهم. لقد وقفوا بتلك الطريقة تعبيرا عن استسلامهم لأن الأتراك لم يكونوا ينبطحون أرضا مثل العرب.

تعودت أن آخذ قراراتي بسرعة، لكنني ترددت قليلا بشأن بحارتي. وسبب ذلك يرجع إلى أن فيهم من قدم خدمات كبيرة لنا وفيهم من يعود إليه الفضل في القضاء على الكثير من رؤوس الإسبان والاستيلاء على سفنهم.

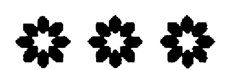
وقف الآلاف من رفاقي البحارة صفوفا وقد حبسوا أنفاسهم

لمعرفة ما لذي سأفعله بزملائهم. لقد كان العفو عن هؤلاء البحارة محفوفا بعدة محاذير. أهمها: أني لا أعرف كيف يكون صداه في إسطنبول. فهؤلاء البحارة يعتبرون قد تمردوا على السلطان بثورتهم عليّ..

وبينما أنا أفكر فيما يجب أن أفعله، أحسست بصوت يأتي من داخلي يلح علي في أن أعفو عنهم فقلت فجأة: **«قد عفوت عنكم جميعا.. خذوا أسلحتكم»**..

اغرورقت عيونهم بالدموع وأخذوا أسلحتهم وهم لا يكادون يرفعون رؤوسهم من الخجل. التفتّ إلى زملائهم البحارة الذين اصطفوا خلفي، فإذا بي أرى في عيونهم نظرات الفرح والامتنان.

تأكد لي فيما بعد صواب قراري هذا. إذ أن أولئك البحارة لم يدخروا جهدا إلا وبذلوه لمسح وصمة العار التي لحقتهم بتمردهم علي، إلى أن قتلوا جميعا رحمهم الله.



الدخول إلى الجزائر

بعد أن فرغت من حل مسألة ابن القاضي وغيرها أصدرت أوامري بالمسير، حيث وصلنا إلى مدينة الجزائر بعد ساعة. فخرج أعيانها إلى ظاهر المدينة لاستقبالنا. وعندما دخلنا المدينة مررنا عبر شوارعها التي اكتظت بالأهالي الذين راحوا يصفقون بحرارة تعبيرا عن ابتهاجهم بقدومنا. وسرنا حتى بلغنا منازلنا القديمة التي كنا نقيم فيها من قبل.

عندما استقريت في الجزائر بذلت كل ما في وسعي لإعادة النظام والأمن إلى مدينة الجزائر. وفي الوقت ذاته أرسلت إلى سنان رئيس لكي يُحضر عائلتي وسفني إلى الجزائر. فخرج سنان رئيس من جيجل في ثلاث وثلاثين سفينة، وعندما كان يهم بالدخول إلى ميناء الجزائر أطلق قذائف المدفعية تعبيرا عن تحيته فرددت عليه التحية بإطلاق قذائف مدفعية من قلعة الجزائر.

هذا ما كان يحدث في الجزائر. أما في تلمسان فإن سلطانها الذي أجلسته على عرشها انتهز فرصة خروجي من الجزائر، ليقوم بإلغاء السكة التي كان يسكها باسم سلطاننا المعظم، ويقوم بضرب العملة باسمه. فكتبت إليه -بعد استقراري في الجزائر- أقول له:

«عليك أن تضرب النقود باسم خليفة الزمان، وترسل دون

تأخير الضرائب المتأخرة إلى الجزائر، والتي بلغت تسعة وثلاثين ألف دوقة. إن إلغاء النقود التي كانت تضرب باسم خليفة رسول الله ﷺ جرم عظيم. عليك أن تجدد إيمانك في الحال وإلا فإني سأمحوك من الأرض مثلما فعلت بابن القاضي».

عندما استلم الملك عبد الله رسالتي قام بتمزيقها ورميها. فقررت على إثر ذلك مساندة ابنه الأمير محمد، الذي كان قد خرج على أبيه رغبة في خلعه والجلوس على عرش تلمسان. فلجأ إلى الجبال في ألفي فارس.

أعددت جيشا وسرت به إلى تلمسان. فلحق بنا في الطريق الأمير محمد. فقبل يدي وانضم إلى جيشي. في هذا الوقت كان الملك عبد الله قد خرج من تلمسان وسار إلينا. فالتقينا في مازونة حيث اشتبكت قواتنا هناك. تمكن جيشي من تشتيت قوات الملك عبد الله وأسره. فأمرت على الفور بضرب عنقه وألبست ابنه الخلعة السلطانية وأجلسته على عرش تلمسان.

أمرت أربعمائة بحار بمرافقة الأمير الجديد إلى تلمسان. فقام هذا الأخير فور وصوله بدفع الضرائب المتأخرة، والتي كانت تقدر بتسعين ألف دوقة سلمها إلى بحارتي[1]، وهم

(1) يوجد اختلاف في تقدير الضرائب المتأخرة، فمرّة يذكر أنها 39000 -

بدورهم قاموا بإرسالها إلى الجزائر. لقد كان أهالي تلمسان سعداء جدا بأميرهم الجديد.

في هذه الأثناء تمكن بحارتي من القبض على فرحات ابن أخي ابن القاضي وأحضروه إلي. فطلب العفو معتذرا بأنه لم تكن له صلة بتمرد عمه الشيخ ابن القاضي، وتعهّد بأن يدفع عشرين ألف دوقة وأنه سيكون خادما وفيا لي. فعقدت معه معاهدة التزم فيها بأنه لا ينزل من جبال القبائل دون إذني، وأن يدفع سنويا عشرة آلاف دينار وألف جمل وألف بقرة وألفي شاة ومائة بغل وعشرين فرسا.

عندما رجعت إلى الجزائر قسمت أسطولي إلى وحدات صغيرة، وأرسلتها للغزو تحت إمرة سنان رئيس. في الليلة السابقة لخروجها إلى الغزو رأيت في المنام رؤيا صالحة جعلتني أشعر بأنها ستكون غزوة مباركة. وبالفعل عادت ستُ سفني تجُرُّ ستَ سفن تم غنمها من الكفار. كانت إحداها مشحونة بالبارود والرصاص وقذائف المدفع، إضافة إلى ستين قذيفة من البرونز. شعرت بسرور عارم لهذه الغنائم لأننا كنا في حاجة إليها.

-

دوقة، أو مرة يذكر أنها 90000 دوقة، فلعلها سهو منه، أو توجد ضرائب أخرى قد أضيفت للضرائب الأولى!

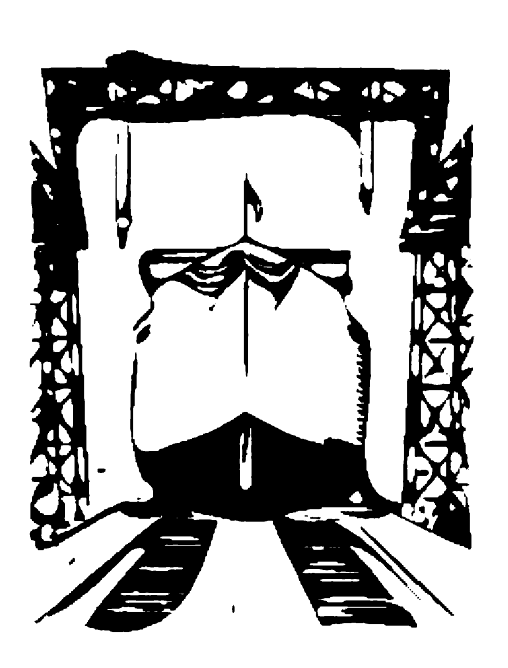
أما السفينة الثانية فقد كانت مشحونة بالنفط والقطران والأعمدة والألواح. وأما الثالثة فكانت تحمل الزيتون، وزيت الزيتون والجبن والعسل. وأما الرابعة فكانت مشحونة بالسكر بينما كانت الاثنتين الأخريين تحملان أموالا نفيسة.

عاد الأسطول الأول إلى الجزائر مشحونا بالغنائم أكثر من غيره من الأساطيل الأخرى. وفضلا عن هذا فإن أيّ سفينة من سفني الخمسة وثلاثين لم تصب بأذى. فالحمد لله حمدا كثيرا على فضله.

كان الإسبان قد شيّدوا قلعة حصينة على أرض صخرية تدعى: البنيون **Penon** تقع في عرض البحر على مسافة ثلاثمائة متر من مرسى الجزائر. كانت القلعة قد أسندت حراستها إلى مئات الجنود المتحصنين بها مزوّدين بمئات المدافع، يقودهم نبيل عجوز يدعى **دون مارتين دي فيرغاس**، عرف قديما بأنه أحد القباطنة المشهورين. لم يكن باستطاعة الإسبان أن يجعلوا في القلعة عددا كبيرا من الجنود نظرا لضيق مساحتها. لم يكن باستطاعة هؤلاء الجنود أن ينزلوا إلى البر. حتى الماء الذي يشربونه كانوا يأتون به من جزر البليار.

قديما كان الإسبان يمطرون مرسى الجزائر بقذائفهم، فيضطر أهالي المدينة إلى الخضوع لهم وقبول ما يُمْلونه عليهم. أما الآن فلم يعودوا يفعلون ذلك بسبب خوفهم منا. إلا أننا

كنا نرى ترك هذه الصخرة في يد الإسبان أمرا غير وجيه. فاقترحت على قائد القلعة الإسباني دون مارتين تسليم القلعة والانسحاب منها دون أن يصابوا بأذى فرفض ما عرضته عليه. عند ذلك شرعت في قصف القلعة بالمدافع على مدى عشرين يوما ليلا ونهارا إلى أن تمكنت من اقتحامها. وبعد معركة كبيرة أعلن دون مارتين مع سبعمائة من رجاله استسلامهم.



وضع كافر في فوهة المدفع وقذفه في البحر !..

عندما كانت القلعة في يد الإسبان كانوا يقومون بقصف المآذن عندما يسمعون الأذان. لقد كانوا يفعلون ذلك فقط من باب التسلية. لكننا عندما استقرينا في الجزائر توقفوا عن فعلهم الشنيع خوفا منا. فحزنوا لفوات هذه التسلية التي كانوا يقومون بها.

ولما قمنا بالاستيلاء على القلعة جيء إليّ بقائد المدفعية الذي كان قد دمَّر العديد من المآذن وقتل كثيرا من المؤذنين عندما كانوا يرفعون أصواتهم بالأذان، فقلت له:

«أيها الكافر.. أنت رام ماهر.. لقد كنت تدمّر المنارة بقذيفة واحدة.. انظر الآن كيْف يكون الرمي الحقيقي!».

ثم أمرت بوضع الكافر في فوهة مدفع وأمرت بقذفه في البحر. وضربت عنق مساعده مع عشرة من جنود المدفعية، أما الباقون فقد أمرت بإلقائهم في الزنازين.

لم تكن لنا حاجة إلى هذه القلعة. فقمت بتلغيم الصخرة وتفجيرها. وبعد ذلك جمعت ثلاثين ألف أسير كافر كانوا يقبعون في السجون فاستخدمتهم في جمع صخور القلعة لبناء كاسر أمواج يربط بين القلعة والميناء. وبهذا الشكل تمكنا من بناء ميناء محمي وجميل لمدينة الجزائر.

أثار استيلائي على القلعة سخط الملك كارلوس وضرب عنق الرسول الذي حمل إليه الخبر قائلا:

«إن الاستيلاء على القلاع من أعمال الملوك العظام من أمثالي. كيف تجرّأ لصٌّ من لصوص البحر مثل بربروس على أخذ قلعتي؟ في الوقت الذي أسرت فيه ملك فرنسا وألقيت به في إحدى زنازين مدريد لم أستطع أن أتصدى لقرصان كهذا؟!. بالتأكيد أن السبب في ذلك يرجع إلى عجز قادتي في البر والبحر. لقد مرّغتم وجهي في التراب.. هيا اخرجوا عني !..».

كان من عادتي أن أدعو ضباط الكفار والقباطنة والولاة والرهبان والفنانين الذين وقعوا في الأسر للمثول بين يدي وأتبادل معهم أطراف الحديث. ولم أكن أطرح عليهم الأسئلة لانتزاع المعلومات منهم، بل كنت أتحدث معهم مثلما يتحدث الصديق إلى صديقه. بهذه الطريقة كنت أحصل منهم على معلومات مهمة جدا. بل كنت أقف على أسرار القصور التي لا تعرف حتى في أوروبا. والحقيقة التي يجب أن أشيد بها هنا هو أنه كان لي في كل بلدان البحر المتوسط جواسيس تابعين لي. إلا أن الجلوس مع الأسير والتحدث معه أفيد في الحصول على المعلومات. فما قاله الملك كارلوس عندما بلغه استيلائي على «البنيون» توصلت إليها بهذه الطريقة. أي عن طريق التحاور مع الأسرى.

كما أني علمت من أحدى الأسرى بأن الملك كارلوس هو الآن في برشلونة وقد قرر التوجه إلى جنوة. لقد كانت جنوة مثل الكثير من الممالك الأوربية تابعة للملك كارلوس، كما كان أكبر أميرالاته المدعو أندريا دوريا **ANDREA DORIA** من جنوة.

بعد أن قمت بتدمير القلعة وإزالة كل أثر لصخرة «البنيون» جاء أسطول إسباني صغير يحمل المؤونة والتجهيزات العسكرية للجنود الإسبان. لم يكن لدى قباطنته علم باستيلائنا على القلعة. وعندما اقتربت القطع الإسبانية ولم تر القلعة ظنت أنها ضلت طريقها. وبينما هي تحاول معرفة طريقها إذا بخمس عشرة سفينة من سفني تحيط بها من كل جانب أمام أعين الأهالي الذين كانوا يشاهدون ذلك. قضينا على معظم من كان في السفن، بينما استسلم ثلاثمائة وخمسة وثلاثين منهم، حيث تم إرسالهم إلى السجن. تركت هذه الحادثة انطباعا بأن السفن الإسبانية لم يعد بإمكانها أن تقترب من سواحل الجزائر.

في هذه الأثناء مرض كبير قباطنتي سنان رئيس فسلمت القيادة لآيدين رئيس **AYDIN REİS** . كان آيدين أكثر دراية بأعمال البحر وأكثر شجاعة من سنان رئيس. دعوته ذات يوم وقلت له:

«ولدي آيدين.. في هذه السنة سوف تخرج أنت للغزو في غرب البحر المتوسط. عليك أن تمضي إلى أن تتوغل في مضيق

سبتة[1]، وفي أثناء عودتك قم باحتلال سواحل إسبانيا دون أن تدع لهم أية فرصة للنيل منك. ثم احمل في سفنك من تقدر على حمله من إخواننا المسلمين اللاجئين إلى جبال غرناطة، فأت بهم سالمين إلى الجزائر. لتكن بركة دعائي تحفظك في غزوك فلا تقصر في الأخذ بالأسباب».

«على الرأس والعين يا باشا» هكذا قال آيدين ثم ودعني وانصرف.

غادر آيدين رئيس مرسى الجزائر في عشرة سفن وتوغل في غرب البحر كما أمرته حتى بلغ مضيق سبتة. فصادف في طريقه خمس قطع بحرية عملاقة من نوع قادرغة. اشتبك مع بحارتها في معركة كبيرة انتهت باستيلائه عليها جميعا ثم قام بشحنها بالبحارة الأتراك وإرسالها إلى الجزائر. في اليوم الحادي عشر لخروجهم من الجزائر كانت السفن الخمسة راسية في ميناء الجزائر. سررت لذلك كثيرا لأنها كانت سفنا حربية في غاية الجودة.

ومن جهة أخرى استمر آيدين رئيس في الإغارة على المدن والبلدات المطلة على الساحل الجنوبي لإسبانيا وقصفها بالمدافع،

---

(1) عرف فيما بعد بمضيق جبل طارق.

وأستمر في أسر من يقع في يديه من الإسبان. كما كان يحمل كل من يعثر عليه من المسلمين في سفنه، حتى لم يبق في سفنه موضع قدم فارغ.

عندما علم الملك الإسباني كارلوس بأن آيدين رئيس قد حمل في سفنه آلافا من المسلمين أمر أكبر أميرالاته المدعو بورتوندو **PORTONDO** أن يقطع طريق العودة على آيدين رئيس. ووعده بمكافأة قدرها عشرة آلاف دوقة إن نجح في مهمته هذه.

اعترض بورتوندو بأسطول ضخم أسطولَ آيدين رئيس في أحد سواحل إسبانيا. فتشاور آيدين رئيس مع قوزداغلي **Gôzdağlı** صالح رئيس -الذي كان أحد رؤساء البحر المرافقين له- في كيفية التصدي للأسطول الإسباني. فتوصلا إلى قناعة بأنه لكي يتمكنوا من القيام بإدارة المعركة بفعالية كبيرة، عليهم أن ينزلوا المهاجرين الأندلسيين في الساحل. وعندما يفرغوا من أمر الإسبان يرجعوا إليهم ويقوموا بحملهم إلى الجزائر.

عندما علم الأندلسيون بهذا القرار أصيبوا بالهلع، وتعالت أصواتهم بالبكاء والنحيب، ورفضوا أن ينزلوا من السفن. لقد كان أكثرهم من النساء والأطفال. فاضطر آيدين رئيس وصالح رئيس إلى إجبارهم على النزول. لقد كان وجودهم في السفن أثناء المعركة محفوفا بمخاطر كبيرة فضلا عن كونهم يعوقون

البحارة عن القتال لانشغالهم بحمايتهم.

اقتربت سفن الأميرال بورتوندو كثيرا، فعاجلهم آيدين رئيس وصالح رئيس بهجوم مباغت وسريع. واشتبكا معهم في معركة شرسة انتهت بالاستيلاء على سبع سفن إسبانية عملاقة، وقتل بورتوندو الذي كان أذاق المسلمين ويلات التعذيب والهوان كما قتل جميع من كان معه من القباطنة.

تمكن آيدين رئيس من تحقيق انتصار حاسم بمساعدة صالح رئيس الذي كان اشتهر بدهائه الخارق حتى وصف بأنه يخرج الثعلب من جحره من فرط دهائه. ومنذ هذه المعركة أطلق المسيحيون لقب «**الشيطان الضارب**» و«**الكافر الضارب**» على الأتراك.

وإضافة إلى غنم السفن الإسبانية العملاقة، تم أسر ثلاثمائة وخمسة وسبعين كافرا إسبانيا. وأما بقية الجنود فقد تم القضاء عليهم جميعا في المعركة. كما تم إنقاذ الأسرى المسلمين الذين كانوا مقيدين في المجاديف. أما الأندلسيون الذين تم إنزالهم من السفن فقد وقفوا على الساحل يراقبون سير المعركة على أحر من الجمر. حتى إذا انتهت المعركة تم حملهم من جديد في السفن ونقلوا إلى الجزائر.

خلال هذه الفترة توفي سنان رئيس، فدعوت آيدين رئيس بعد وفاته بأيام قلائل، فدخل عليّ وقبّل يدي. فقمت بتعيينه

قائدا للأسطول في مكان المرحوم سنان رئيس. كما عينت صالح رئيس نائبا له.

عزمت على إرسال آيدين رئيس إلى إسطنبول. نظرا لقيادته لبعض وحدات الأسطول العثماني عندما كان في إسطنبول. وكان السلطان بايزيد الثاني-رحمه الله- قد أرسله إلى مصر ليكون في خدمة السلطان المملوكي. فقدم من هناك إلى الجزائر ولازم أخي عرّوج رئيس.

قبيل إرساله إلى إسطنبول قمت بإعداد ثلاث سفن من نوع قادرغة وجهزتها بكل ما تحتاج إليه. كما قمت بتزيين سواري السفينة التي تربط بها الأشرعة بذهب جنوة، حتى كانت تبدو من بعيد وهي تلمع عندما تضربها أشعة الشمس. فعلا كانت تبدو فائقة الحسن بحيث يعجز اللسان عن وصفها. كما جعلت في كل سفينة منها مائتا بحار، واخترت لها أقوى الجدّافين. كما اصْطَفَيْتُ ثلاثمائة أسير كان آيدين رئيس سيقدمهم هدية إلى ملك البر والبحر، السلطان سليمان خان.

وعندما أكمل البحارة استعدادهم جاءوا وقبلوا يدي ثم غادروا ميناء الجزائر على أصوات المدافع.

آيدين رئيس بين يدي السلطان العظيم

دخل آيدين رئيس ميناء إسطنبول في ساعة مباركة ودَوَّت المدافع محيية السلطان. وعندما رست السفن نزل منها ثلاثمائة أسير في حلل زاهية. كل منهم يحمل أنواعا شتى من الغنائم. بينما تدفق أهالي إسطنبول على الشوارع والطرق المؤدية إلى الميناء للتفرج على أسطول الجزائر.

تشرّف آيدين رئيس مع بحار آخر بالمثول بين يدي السلطان المعظّم سليمان خان. وسلمه رسالتي التي بعثتها إليه فتكرّم بقراءتها بنفسه. وعندما فرغ شكر آيدين رئيس وأثنى عليه. وفي نهاية المقابلة أمر السلطان لآدين رئيس بأربعمائة دينار، وللبحار المرافق له بثلاثمائة. كما أمر بمائتي دينار لتسعة من قباطنتي، وبمائة دينار لأئمة السفن، وبخمسين دينار لكل ضابط من ضباطي. كما أهدى لآيدين رئيس سيفا مرصّعاً وخلعة سلطانية ومنظاراً حربيا. أما البحارة فقد أمر بإنزالهم بدار الضيافة بمصنع بناء السفن حيث تم إكرامهم هناك.

أعطى السلطان تعليماته لآيدين رئيس ثم قام هذا الأخير بزيارة جميع الوزراء وكبار القباطنة.

مكث آيدين رئيس شهرا كاملا في إسطنبول. وفي نهاية الزيارة مثل بين يدي السلطان مرة أخرى. فسلمه سيفا وخنجرا

مرصَّعَين، وخلعةً مُوَشَّاة بخيوط ذهبية وراية منسوجة بالذهب، ونيشانين مرصّعين بماسة قيّمة وأمره أن يسلمها إليّ.

وإضافة إلى ذلك أمر بأن تسلم له سفينة من نوع قادرغة ذات عشرين مقعدا، قام بتجهيزها بقذائف قد تم صهرها قبل وقت قصير. كما شحنت مستودعات السفينة وممراتها -بما في ذلك- قُمْرَة القيادة بمختلف المعدات الحربية، كالأعمدة والأشرعة والقطران والنفط والحبال الغليظة التي تشد بها السفن وغيرها. فلم يبق في ممرات السفينة موضع قدم لم يتم شحنه بشيء يمكن أنه نكون في حاجة إليه. لقد كانت المعدات من الكثرة بحيث جعلت السفن العظيمة تغوص في مياه البحر من ثقلها.

وعندما كان آيدين رئيس يهم بمغادرة الحضرة السلطانية أهدى له السلطان نيشانا محلّى بالجواهر. فغادر آيدين رئيس القصر في غاية السرور بهاتين السفينتين وما تحملانه من معدات فضلا عن سروره العظيم بإكرام السلطان له.

نزل السلطان إلى قصره الساحلي المطلّ على ساحل سراي بورنو **SARAY BORNU** للتفرج على أسطولي. حيث كانت السفن تمر بمحاذاة القصر مطلقة قذائف مدافعها محيية السلطان قبل أن تتوغل في عرض البحر عائدة إلى الجزائر.

عبر آيدين رئيس سواحل **أولونيا AVLONYA** مرورا بساحل

دراش[1] حتى بلغ خليج البندقية. وبعد أن أمضى بعض الوقت هناك غادر الخليج مرورا بصقيلة حتى بلغ جزر البليار، فأغار عليها وغنم غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى من جزيرة ميورقة **MAYORKA** ، ثم قفل راجعا إلى الجزائر.

لقد خرج آيدين رئيس من الجزائر بعشرة سفن من نوع قادرغة فعاد إليها بثلاث سفن هدية من السلطان بالإضافة إلى خمس عشرة سفينة صغيرة أخرى كان قد غنمها في غزواته التي قام بها في أثناء عودته إلى الجزائر، فبلغ أسطوله الذي رجع به ثمانية وعشرين قطعة. لقد كان سرورنا عظيما عندما رأينا آيدين رئيس يدخل ميناء الجزائر.

هذا؛ وقد وجدنا السفن التي غنمها آيدين رئيس مشحونة بكميات كبيرة من القهوة والأرز والحرير والقماش والمرايا والمسدسات والبنادق.

استقبلت آيدين رئيس فسلَّمني كتاب السلطان المعظم الذي كان ملفوفا في علبة مغطاة بقطعة قماش صغيرة من القطيفة. أخذتها بإجلال كبير وقبلتها ثلاثا ووضعتها على رأسي تعظيما للسلطان. ثم فتحتها وقرأتها وأنا قائم على قدمي فإذا فيها:

---

(1) ساحل ألباني يقع على بحر الأدرياتيك.

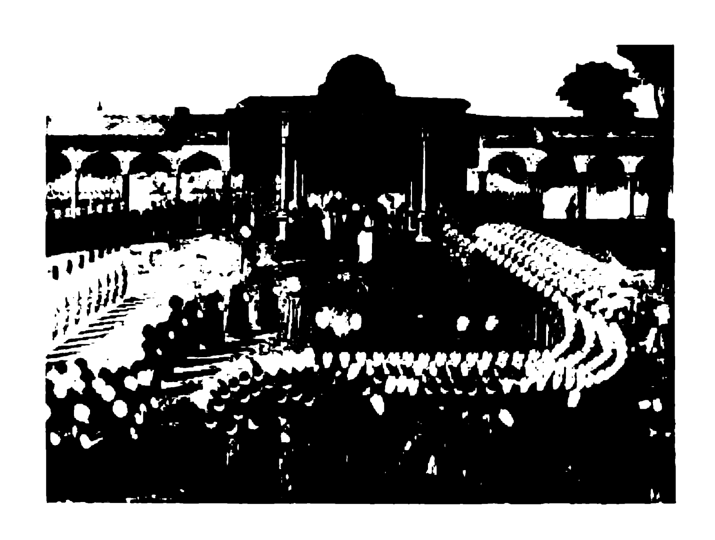
«بايلرباي الجزائر خير الدين باشا. لقد بلغت أخباركم عتبتنا السلطانية وأحطنا علما بأحوالكم. وقبلنا الثلاثمائة أسير الذين أهديتموهم لنا. وأدعو الله أن ينصرك أنت وإخوانك المجاهدين وأن يبيض وجوهكم في الدنيا والآخرة. وقد بعثت إليك بالمعدات الحربية لكي تتصدى لأعدائنا كفار إسبانيا فلا تدع لهم عينا تطرف. ضع النيشان الذي بعثته لك في عمامتك وثبِّت رايتي في أعلى شراع سفينتك. وأما رايتي البيضاء الموشاة بالذهب فقم بتثبيتها في موضع يحمل معنى شرفك وعزتك بحيث لا تقع على الأرض».

قمت بتثبيت الراية السلطانية الموشاة في موضع مرتفع عند باب باشَوِيَّة الجزائر. فكنا كل يوم عند غروب الشمس نقوم بالمراسيم السلطانية فننزل الراية على أصوات الموسيقى العسكرية العثمانية ثم نحفظها في اللفافة. وفي اليوم التالي نقوم برفعها عند شروق الشمس على وقع الموسيقى العسكرية. وأما عند خروجنا للغزو فقد كنت أقوم بتثبيت الراية السلطانية في أعلى شراع السفينة.

في هذه السنة قمت بجمع يتامى وأبناء وبنات فقراء مدينة الجزائر وضواحيها اللاتي بلغن سن الزواج. فقمت بتختين الأطفال وتزويج البنات، كما أعطيت كل واحد منهم ما يحتاج إليه من المال. وأمرت بإعطاء مساكن لمن لا بيوت لهم وتشغيل

العاطلين عن العمل منهم.

لقد كنت موقنا بأن الله يكافئ عن كل إحسان نقوم به بأضعاف ما نبذله. لقد رأيت هذا وعايشته بنفسي طيلة حياتي. فكلما أنفقت من ثروتي شيئا كان الله يعجل بأضعاف مضاعفة لما أنفقه في سبيله.



قاعة الاستقبال الملكي بقصر طوب كابي سراي

لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك !!

«لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك، فليس فيكم من يستطيع التصدي لبربروس..».

بهذه العبارات عَنَّفَ ملك إسبانيا قادته وأميرالاته..

هنا جثا الأميرال الجنوي أندريا دوريا الذي كان حاضرا في ذلك المجلس على ركبتيه أمام الملك وهو يقول:

«اطمئن يا مولاي سوف أمضي بسرعة وأحضر هذا المدعو بربروس عدو المسيحية مقيدا بالسلاسل بين يديك، وحينها لك أن تأمر بقتله لكي تلحق روحه الخبيثة بروح أخيه عرّوج المستقرة في قعر جهنّم..».

عندما سمع الملك هذه الكلمات تهلل وجهه. لقد جعلته ثقته الكبيرة في أندريا دوريا يعتقد بأن هذا الجنوي يمكنه أن يفعل شيئا ما.

بلغني ما جرى في هذا المجلس على جناح السرعة. لقد كان جواسيسي المنتشرين في شتى المدن الأوروبية يحيطونني علما بكل صغيرة وكبيرة تحدث. وبإزاء هذا كان الجواسيس الذين يعملون لحساب النصارى منبثين في الجزائر وغيرها من المدن الإسلامية. وهم أيضا كانوا يزودونهم بكافة المعلومات التي يحتاجون إليها.

وحتى لا تتسرب أية أخبار من الجزائر كنت أتصرف بشكل طبيعي وفي غاية الحذر. إلا أنه كان في حكم المستحيل منع تسرب الأخبار المتعلقة بتحركاتنا العسكرية التي تجري في مرسى الجزائر الذي كان يعد من أكثر المراسي التجارية النشيطة في العالم.

خرج دوريا على أمل أن يتمكن من أخذي أسيرا إلى ملكه. لقد وضع الملك تحت تصرفه عشرين سفينة إسبانية وعشرة أخرى جنوية كلها من نوع قادرغة. كانت تلك السفن العملاقة أكبر من السفن التي كنا نستخدمها نحن، إلا أن سفننا كانت أكثر خفّة وأكثر فعالية من سفنهم.

في هذه الأثناء كان لديّ بالجزائر خمس وثلاثين سفينة من نوع قادرغة جعلت عليها البحار قورد أوغلو مصلح الدين رئيس وأمرته بأن يكون على أهبة الاستعداد لخوض المعركة القادمة.

علمت بوصول دوريا إلى جزيرة ميورقة قادما إليها من جزر الباليار. لكن هذا الأخير بالرغم من تعهده لملكه بأنه سوف يقوم بأسري إلا أنه لم يجرؤ على غزو الجزائر فأغار على ميناء شرشال الذي لم يكن يحرسه سوى بضع مئات من البحارة.

عندما رأى البحارة أسطول دوريا يقترب من شرشال قاموا بالتحصن في القلعة بعد إحكام إغلاقها. ولما كان رجاله منهمكين في نهب ما وجدوه في المرسى والمدينة انتهز البحارة

هذه الفرصة وفتحوا أبواب القلعة وقاموا بهجوم خاطف على رجال دوريا. لم يكن دوريا يتوقع هذه المفاجأة لأنه كان يظن بأن الخوف هو الذي دفع الأتراك إلى الاحتماء بالقلعة.

تفرّق البحارة في أزقة وشوارع المدينة عاملين السيف في رقاب الكفار مستفيدين من فرصة تفرقهم وعجزهم عن الاجتماع في معسكر واحد. وعلى هذا النحو قتل المئات منهم بعدما لاذ الآخرون بالفرار إلى سفنهم ينشدون النجاة. بينما وقع ألف وسبعمائة منهم في الأسر.

عندما بلغني هجوم دوريا على شرشال خرجت إليه في أربعين قطعة. إلا أنه ما إن علم بخروجي حتى غادر شرشال ولم أدرك سوى أسطول صغير تابع له تمكنت من الاستيلاء عليه بعد معركة عنيفة.

عندما كانت المعركة على أشدها قام الأسرى المسلمون المقيدون بالسلاسل في السفن الإسبانية بكسر أغلالهم وهم يرددون «يا الله..»

انجلت المعركة عن استشهاد أكثر من ثلاثمائة شهيد من رجالنا بينما تمكنا من الاستيلاء على الأسطول بأكمله.

بلغت سفني ستين قطعة بما فيها تلك التي استولينا عليها من العدو. قدمت بها جميعا إلى مرسى شرشال. كانت سبع قطع من أسطولي قد قدم بها البحار سنان رئيس من جربة.

وفي هذه الأثناء أحصيت عدد الأسرى المسلمين الذين حررتهم فبلغ عددهم ألفين ومائتي أسير أطلقت سراحهم جميعا. فاختار قسم منهم أن يدخل في خدمتي بينما أعطيت الآخرين ما يحتاجون إليه من مال وأرسلتهم إلى بلادهم.

أما عدد الأسرى الذين أسرناهم من سفن الكفار فقد بلغ ألفا وتسعمائة أسير من بينهم أسير من الإفرنج برتبة «أميرال» كما كان من بينهم قبطان كبير آخر. لقد أمرت بربطهم جميعا بمجاديف السفن لكي يعملوا في دفعها خلال أسرهم.

أما أنا فلم أمكث في شرشال سوى بضع ساعات قبل أن أغادرها متوجها إلى الجزائر التي بلغتها بعد ثلاثة أيام من مغادرتها.



نموذج من المعارك البحرية للأسطول العثماني ق 16

آيدين رئيس في المحيط الأطلسي

كنت أريد أسر أندريا دوريا. ولتحقيق ذلك جعلت آيدين رئيس على رأس أسطول كبير وأمرته أن يتعقب أثر دوريا. فخرج آيدين رئيس بأسطوله حتى بلغ سبتة، وتوغل في سواحل العدو إلى أن أتى جبل طارق، ومن هناك عبره إلى المحيط الأطلسي، إلا أنه لم يقف على أثر للعدو.

وعلى أثر ذلك قفل راجعا إلى الجزائر، فأغار في أثناء عودته على جزر البليار وقصف جزيرة ميورقة والسواحل الإسبانية المطلة على البحر المتوسط. فتمكن بهذه الحملات من أسر ثلاثة آلاف كافر حملهم جميعا في سفنه. وتوغل في أرض العدو حتى كان على مقربة من ميناء برشلونة.

وعلى مسافة قريبة من برشلونة كان يوجد دير كبير تعوّد ملوك إسبانيا على زيارته في كل سنة، فقام آيدين رئيس بالإغارة على هذا الدير وأسر ثمانين راهبا واستولى على ستة وثلاثين صندوقا من خزائن الدير. لقد كانت القناديل الفضية التي استولى عليها وحدها تحوي على خمسة وعشرين كيلا[1] من الفضة.

---

(1) في النسخة التركية ورد أن القناديل الفضية كانت تزن 25 قنطارا.

كان هذا الهجوم يمثل ضربة قاضية لكبرياء الملك كارلوس أرغمنا به أنفه في التراب. فقد بلغ عدد السفن التي استولى عليها آيدين رئيس في هذه الغارة خمسا وخمسين قطعة ما بين سفينة كبيرة وأخرى صغيرة، قام بسحبها جميعا ودخل بها ميناء الجزائر. وبهذه الهجمات المظفّرة نكون قد أعطينا الجواب اللائق لدوريا على غارته التي شنها على شرشال.

صارت مدينة الجزائر بهذه الغنائم نموذجا يضاهي أسواق بلاد الهند في رخصها. إذ كان التجار يشترون تلك البضائع بدرهم من الجزائر ويبيعونه بعشرة دراهم حتى أثروا من ذلك ثراء فاحشا.

بلغ عدد الأسرى المحبوسين في الزنازين ستة عشر ألف أسير عدا الذين تم تكليفهم بالجدف في السفن أو الذين تم تخصيصهم للخدمة في البيوت.

من هؤلاء الأسرى اخترت خمسمائة من أحسن الجدافين وقررت إرسالهم للعمل في الأسطول العثماني بإسطنبول.

-

وقد سبق وأن أشرنا في موضع سابق من هذا الكتاب بأن القنطار العثماني يزن: 56.452 كغ. انظر : Osmanlı Tarihi Terimleri Sözlüğü, s 214.

وندبت لهذه المهمة آيدين رئيس الذي قام بنقلهم في خمس عشرة سفينة من نوع قادرغة أبحر بها إلى إسطنبول.

وصل آيدين رئيس إلى إسطنبول في اليوم السابع والعشرين من خروجه من الجزائر ومثل بين يدي سلطان الدنيا سليمان خان الذي تكرم بقراءة رسالتي بنفسه.

قام آيدين رئيس بزيارة الوزراء وغيرهم من أركان الدولة وسلّم لهم جميعا الهدايا التي بعثتها إليهم. فحظي منهم بتقدير وإكرام كبيرين. أما السلطان سليمان خان القانوني فإنه قد طلب آيدين رئيس مرة أخرى للمثول بين يديه وخاطبه قائلا:

«اسمع أيها الرئيس، لقد وقعت جميع الأعمال التي قام بها بايلرباي الجزائر خير الدين مني موقع القبول. لأجل ذلك سوف أمنحك الآن خمس قطع بحرية من نوع قادرغة تقوم بتسليمها إليه، كما أمرت قبطان باشا[1] أن يزودكم بكل ما تحتاجون إليه من قذائف وآلات الحرب وغير ذلك من التجهيزات. خصوصا قذائف المدافع البحرية خذ منها ما تقدر على حمله في سفنكم. وسوف أرسل معكم عددا من مهندسي المدافع يكونون في خدمتكم. يجب أن يكون أسطولنا في الجزائر في غاية القوة وفي

(1) المقصود به هنا قائد الأسطول العثماني والذي يدعى أيضا قبطان داريا.

منتهى الجاهزية للقتال. فقد بلغني أن الملك كارلوس يحمل نوايا في غاية الخبث نحو الجزائر. فإياكم أن تغفلوا عن أخذ التدابير اللازمة أو تغفلوا عما يدبره لكم هناك».

وصل آيدين رئيس إلى الجزائر في اليوم الحادي والأربعين من مغادرته لإسطنبول. فقد انطلق بخمس عشرة سفينة من نوع قادرغة، منها خمس قطع كان هدية من السلطان سليمان خان. كما استولى في طريق عودته على سبع سفن أغار بها جميعا على عدد من مدن الكفار فتمكن خلال غزواته تلك من أسر سبعمائة أسير.

سلم لي آيدين رئيس كتاب السلطان مختوما بختم آل عثمان الأبيض. فقمت بتقبيل العلبة التي كانت تحفظ فيها الرسالة ثلاثة مرات ووضعتها على رأسي تعبيرا عن تعظيمي للسلطان، ثم أخرجت منها الرسالة وقرأتها بعناية كبيرة حتى حفظت أوامر مولانا السلطان عن ظهر قلب. ولما فرغت من ذلك أخذت من آيدين رئيس هدايا مولانا السلطان التي كانت عبارة عن خلعة سلطانية مصنوعة من الفرو الثمين وساعة ذهبية وسيفا مرصعا بالجواهر بالإضافة إلى الراية العثمانية.

في هذه الأثناء كان الملك كارلوس منشغلا عنا. فقد أرسل إليه أخوه الملك فرناندو من فيينا يطلب المدد. في هذا الوقت كان فيه مولانا السلطان سليمان خان يؤكد على غزاة الحدود في المجر

أن لا يدعوا الملك فرناندو يلتقط أنفاسه بمتابعة الغزو لبلاده.

أدرك الملك كارلوس بأنه لا قبل له بمواجهتنا فقام بتحريض ملك تلمسان على الثورة علينا مرسلا إليه أموالا كثيرة واعدا إياه بجعله سلطانا على الجزائر. وبما أن هذا السلطان كان يعتبر نفسه الملك الشرعي فقد كان هو الآخر يوزع وعوده على من يحيطون به.

أما الملك كارلوس فإنه أدرك من خلال تجاربه الكثيرة أن البلاد التي لم يتمكن من احتلالها أو إخضاعها لنفوذه فإن أقصر طريق للاستيلاء عليها هو أن يغدق الأموال على من يلوذ به من الحلفاء والطامعين من الزعماء والملوك الصغار.

صدّق سلطان تلمسان هذه الوعود وأعلن عصيانه. عند ذلك أمرت دلي محمد رئيس بأن يخرج للغزو في البحر، بينما سرت أنا إلى تلمسان حتى أتيت هذه البلدة الواسعة التي كانت تقع على حدود مملكة فاس.

لم أجد سوى مقاومة صغيرة لاذ بعدها سلطان تلمسان بالفرار وأرسل إليّ بعد ذلك العلماء يطلب العفو. فقلت لهم:

«سأعفو عنه عندما يجيء بنفسه معتذرا».

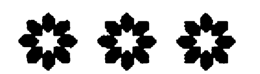
فجاء السلطان المتمرد ودفع إليّ الخراج المتأخر والذي كان مقدراه مائة وعشرة آلاف دينار، ثم جثا على ركبتيه وتشبث بقدمي!!، فقلت له:

«دع عنك هذا أيها الكافر وجدّد إيمانك.. لقد قمت بموالاة أكبر أعداء ديننا والخروج عليّ وأنت تعلم بأني أمثّل خليفة المسلمين وسلطان الدنيا فسللت سيفك في وجهي!!».

أعلن سلطان تلمسان توبته بتلاوة الشهادتين وجدد دخوله في الإسلام كما أعاد العقد على زوجاته اللاتي كان قد فسد نكاحه بهن بسبب ارتداده عن الإسلام.

عندما كنت في تلمسان صادف دلي محمد رئيس بأسطوله المكوّن من أربعين قطعة أسطولا إسبانيا مكونا من خمس وثلاثين سفينة من نوع قادرغة. وسرعان ما اشتبك معها في عرض البحر. وما إن حمي الوطيس حتى أعلنت تسع وعشرين سفينة إسبانية استسلامها له؛ بينما لاذت الستة الباقية بالفرار.

ولما بلغ الانتصار الساحق الذي حققه الأتراك على أسطول الإسبان مسامع الملك الإسباني المقيم في برشلونة كاد يموت من الحنق، وهو الذي لم يكن يقدر على فتح فمه من القنوط الذي أصابه بعد هزيمته أمام السلطان سليمان خان في ألمانيا.



أسطولي يخرج في الحملة الحادية والعشرين إلى إسبانيا

عندما بلغت انتصاراتنا مسلمي الأندلس قويت قلوبهم وأعلنوا الثورة. فنزل ثمانون ألفا ممن كان معتصما بالجبال وهاجموا الإسبان فألحقوا بهم هزائم كبيرة.

وما كادت أخبار الثورة تصلني حتى أمرت محمد رئيس بالخروج على رأس أسطول مكون من ست وثلاثين سفينة لنصرة الثائرين. فشرع محمد رئيس على الفور في إمداد الثوار في السواحل الإسبانية.

هذا؛ وكان أسطولي قد قام حتى هذا التاريخ بواحد وعشرين حملة على إسبانيا، في كل منها كان يقوم بإنقاذ آلاف من المسلمين من الرجال والنساء والأطفال من المحارق والسيوف الإسبانية ونقلهم إلى سواحل شمال إفريقيا.

كنت أتولى بنفسي قيادة الأسطول في معظم هذه الحملات. كما تولى آيدين رئيس وسنان رئيس قيادة الأسطول مرات عديدة، فجزاهم الله خيرا على جهادهم.

إن كفار إسبانيا لا يشبهون غيرهم من كفار الإفرنج. لقد كانوا في غاية الظلم والغرور، متعطشين للدماء كالكلاب المسعورة!..

لقد كان سلطان العالم سليمان خان مثل أبيه السلطان سليم خان وجده السلطان بايزيد خان الثاني لا يتخلف عن مساندة مسلمي الأندلس. فطيب الله ثراهم وأسكنهم فسيح جنانه. ونظرا لاهتمامه بمسألة المسلمين بالأندلس فقد تلقيت منه العديد من الرسائل السلطانية المتعلقة بهذا الموضوع.

وذات يوم وصل إلى الجزائر مبعوث السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان المدعو: سنان آغا. أبرز لي رسالة بعث بها إليّ مولانا السلطان وسلمها إليّ فأخذتها وقبّلتها ثلاثا إجلالا للأمر السلطاني ثم فتحتُها وقرأتُها فإذا به يقول لي فيها:

«إلى بايلرباي أيالة الجزائر العربية الغازي خير الدين باشا.. اعلم بأني عازم على غزو ملك إسبانيا. فإذا وصلك كتابي هذا فاستخلف رجلا تعتمد عليه وأقدم علي في إسطنبول. أما إذا لم تجد من تعتمد عليه في خلافتك فأعلمني بذلك!.»

ما كدت أقرأ كتاب السلطان حتى قلت لسنان شاوش:

«هذا أمر مولانا.. سوف أتوجه إلى إسطنبول على جناح السرعة لكي أتشرف بالمثول بين يديه فأنظر ماذا يأمر به».

ودون تأخير شرعت أتأهب للسفر. فلما بلغت ملك إسبانيا دعوة مولانا السلطان لي بالقدوم إلى إسطنبول أصابه الهلع وأعطى أوامر صارمة لأميراله الكبير أندريا دوريا بأن يقطع طريقي ويحول دون خروجي.

كان الوضع يقتضي أن أخرج في أسطول كبير إلى إسطنبول، لأني كنت أتوقع أن أصادف دوريا في عرض البحر. ومن جهة أخرى كنت أدرك بأنني لو أبقيت الجزائر في حماية قوة صغيرة فإنه من المحتمل أن يثور عشرات آلاف الأسرى الذين كانوا في هذه المدينة.

ولمنع حدوث ذلك دعوت قريبي محمود رئيس الذي كان مكلفا بمراقبة هؤلاء الأسرى وأعطيته أوامر صارمة بأن يكون في غاية الانتباه لتحركاتهم، وأن يشدد عليهم الحراسة في أثناء تفقده لهم.

أرخينا أشرعة سفننا في ساعة مباركة وغادرنا الجزائر متوجهين إلى مدينة عرش العالم إسطنبول. كانت ترافقني في رحلتي تلك ست وعشرون سفينة قادرغة من وحدات أسطولي؛ بينما تركت القطع الأخرى في الجزائر وغرب البحر المتوسط. وبعناية المولى سبحانه استوليت في عرض البحر على ثمان عشرة سفينة من سفن الكفار فكان من قدرنا أن ندخل إسطنبول بأربع وأربعين سفينة.

كان يرافقني في هذه الرحلة ثمانية عشر رئيسا من رؤساء البحر، كلهم كانوا قد أطبقت شهرتهم الآفاق في البحر المتوسط. فما كنا لنمر بالسواحل الجنوبية لإيطاليا التي كانت تابعة للإسبان دون أن نقوم بقصفها أو الإغارة عليها.

إن مولانا السلطان كان في حالة حرب مفتوحة مع إسبانيا، ولأجل ذلك أغرنا على السواحل الغربية لجزيرة سردينيا ثم توغلنا شمالا حتى بلغنا مشارف جنوة.

ومن هناك واصلت طريقي محاذيا سواحل إيطاليا حتى دخلت ميناء ماسينا المشهور فوجدت أسطولا إسبانيا مكونا من ثمان عشرة قطعة استوليت عليها جميعا وقمت بربطها بسفني وسحبها معي بعد معركة عنيفة في عرض البحر.. وبهذا النصر تحقق حلمي بإدخال السرور إلى قلب سلطاننا العظيم الذي كان يريد غزو إسبانيا.

أما أندريا دوريا الذي كان يعتبر نفسه أكبر أميرال كافر فقد كان في هذه الأثناء يجوب سواحل المورة وعندما بلغه انتصاري في مسينا أصيب بالذعر الشديد، ولاذ بالفرار إلى جزر أيونيا AYUNYA . فتعقبته إلى هناك إلا أنني لم أتمكن من إدراكه وأسره ولا أدري في أي جحر اختفى. وبعد فترة بلغني أنه لجأ إلى جنوة.

أرسلت خمس وعشرون سفينة لمطاردة دوريا فصادفت في طريقها أسطولا صغيرا لدوريا مكونا من سبع قطع. استسلمت اثنتان منها بعد الاشتباك معها بينما لاذت خمس بالفرار.

أما أنا فقد خرجت من جزر أيونيا متجها نحو الجنوب حيث أتيت سواحل جزيرة المورة. في هذا الوقت كان كامنكاش KAMANKAŞ أحمد باشا قطبان داريا راسيا بقسم من الأسطول

العثماني في ميناء نافارين الواقع جنوب غرب جزيرة المورة. وما إن تراءينا حتى أطلقنا قذائف مدافعنا محيين لبعضنا البعض. فقابلت أحمد باشا وقررنا على إثر ذلك أن نتوجه إلى إسطنبول.

وصلنا إلى إسطنبول في يوم مشمس من أيام الشتاء. وبالرغم من برودة الجو إلا أن أهالي إسطنبول المتصفون بالظرافة واللطف أبوا إلا أن يخرجوا لاستقبالنا. لقد كان عددهم يقارب مائتي ألف شخص.

مضت ساعات ونحن نطلق قذائف مدافعنا تحية للسلطان العظيم، وللمدينة التي تحتضن عرش العالم، ولأهالي إسطنبول المتصفين بالعلم والظرافة والشرف.

ركبنا زورقا صغيرا وخرجنا إلى الساحل برفقة ثمانية عشر من مشاهير رياس البحر، بالإضافة إلى عدد من البحارة المرافقين لي في أجمل حلة، فسلمت على الأهالي الذين استقبلونا بسرور بالغ وحب عظيم معبرين عن ذلك بتصفيقاتهم الحارة.

كان مائتا أسير يتقدمون موكب الاستعراض، كل منهم يحمل أجمل ما زخرت به قصور أوروبا من التحف المصنوعة من الذهب والفضة.

ثم تلاهم ثلاثون من نبلاء الإفرنج. كلهم كانوا من الأميرالات وكبار قادة جيوش أوربا والولاة والأعيان، بل ومن بينهم أقارب للملك.

وبعد أن مر هؤلاء تبعهم مائتا عبد يحملون على أكتافهم

أكياسا مثقلة بالذهب والفضة. وتبعهم مائتا غلام قد ناءت أعناقهم بالجواهر التي كانوا يتحلون بها. كل منهم يحمل لفائف من القماش المطرز بخيوط الذهب والفضة.

وخلفهم كانت مائتا جارية تتعقب الموكب، كل منهن قد اختيرت من أجمل حسناوات أوربا. كانت الجواري يرتدين فساتين زاهية من أجود الأقمشة، ويتحلين بأجمل الجواهر الثمينة.

بعد ذلك مرّت مائة راحلة مُحَمَّلة بالغنائم، يتبعها قطيع من الحيوانات النادرة التي جلبت من أفريقيا كالزرافات والأسود والفهود وغيرها، يقودها عدد من المروِّضِين الذين يشرفون على رعايتها.

أما أنا فقد كنت أسير خلف المواكب مع رياس البحر وعدد من البحارة المرافقين لنا قد ارتدينا ملابس بسيطة، إلى أن انتهى بنا المسير إلى **قصر طوب كابي سراي TOPKAPI SARAYI**. كنت أشعر بسعادة بالغة عندما وصلت إلى قصر السلطنة التي تحكم العالم.

وحسبما سمعت ورأيت فإن أهل إسطنبول لم يشاهدوا من قبل استعراضا مثل استعراضنا فخامة وغنى وطرافة وجمالا. أما الحقيقة فالله وحده العالم بها.

في اليوم التالي دعيت أنا وثمانية عشر من ريّاس البحر للمثول بين يدي السلطان سليمان خان. فلما دخلنا عليه قبّل كل منا يد السلطان الذي بالغ في الثناء علينا بما لم يحظ به أحد من قبل.

ترقيتي إلى رتبة قبطان داريا

كان استقبال السلطان لنا في غاية المهابة والتعظيم. فقد اجتمع مجلس الديوان السلطاني في جلسة خاصة، حضرها كافة الوزراء الذين أخذوا أماكنهم في صفين بمحاذاة السلطان. ولم يتخلف عن ذلك سوى الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا الذي كان متواجدا في حلب. إذ أنه كان قد غادر إسطنبول منذ ثمان وستين يوما لغزو إيران.

تفضل مولانا السلطان العظيم -تواضعا منه- بقبول الهدايا التي أتحفته بها وشكرني عليها، وكافأني ورياسَ البحر المرافقين لي بأن أمر لكل منا بخلعة سلطانية نفيسة.

لا أذكر منذ عقلت حادثة أدخلت السرور على قلبي تعادل تلك الغبطة التي شعرت بها عندما احتفى بنا السلطان.

وفي أثناء الاجتماع خاطبني السلطان قائلا:

"اسمع يا باشا...أريد أن أجعلك قبطان داريا لتتولى إدارة أسطولنا السلطاني وقيادته في حروبك المظفرة.. ولتعلم بأنني لن أنزع منك ولاية الجزائر بل ستحتفظ بها بصفتك بيلربايا عليها[1]، إلا أنه يتعين عليك أن تختار من تراه مناسبا لإدارتها

(1) أي أميرا على جميع أمرائها.

نيابة عنك والإشراف عليها باسمك. ولكي تتمكن من ترتيب الأمور المتعلقة بهذين المنصبين عليك أن تقابل وزيرنا الأعظم المعسكِر في حلب، فعجل بامتطاء فرسك والحق به. وعندما ترجع سوف نتقابل من جديد».

وبعد أن انفضَّ الاجتماع خلا بي السلطان سليمان خان وأعلمني بأنه يريد غزو إسبانيا. ولما أتى على ذكر أندريا دوريا لم أتمالك نفسي حتى قلت:

«يا مولاي إن هذا الكلب المدعو دوريا لا يستحق أن تتفوه شفتاك المباركتان باسمه!!»

ثم لم ألبث أن أدركت خطئي بتجاوزي لحدود الأدب بحضرة السلطان فخجلت لذلك كثيرا. ذلك لأنه لم يكن أحد يقدر أن يتكلم بهذا الأسلوب بحضرة السلطان العظيم.

كان السلطان سليمان خان في غاية اللباقة والأدب. فما كاد يسمع ما قلت عن دوريا حتى ابتسم وأشار إليّ بيده أنه لا تثريب عليّ مما قلت.. فتنفست الصعداء، ولما انتهى لقاؤنا غادرت المجلس بعد أن أذن لي السلطان بذلك.

مكثت بضعة أيام في إسطنبول، قبل أن أمتطي فرسا سريع العدو انطلقت به إلى حلب التي وصلت إليها بعد عشرة أيام من السير الحثيث. وحسبما يقال لم يحدث أن فارسا قطع المسافة بين إسطانبول وحلب في عشرة أيام قبلي.

في خلال رحلتي إلى حلب أمضيت ليلة في بورسة وأخرى في قونيا. أما في غير ذلك فقد كنت عندما يبلغ مني التعب مبلغا كبيرا أنزل عن فرسي فأنام ساعتين ثم أقوم وأكمل رحلتي.

وعندما وصلت إلى مدينة قونيا زرت قبر مولانا جلال الدين الرومي وفي اليوم العاشر بلغت حلب فدخلت القصر الذي نزل فيه الوزير الأعظم الدامات إبراهيم باشا DAMAT İBRAHİM PAŞA. كان الوزير في الأربعينيات من عمره وهو بذلك في مثل سن مولانا السلطان، ظريفا لطيفا شديد الذكاء.

أقمت يومين في حلب ناقشت خلالهما مع الوزير الأعظم الأوضاع السياسية في أوربا والعمليات البحرية التي يقوم بها الأسطول الهمايوني. وعند فراغنا أصدر الوزير قرارا بتعييني قبطان داريا وألبسني الخلعة ثم ودعني.

وصلت إلى إسطنبول بعد عشرة أيام من مغادرتي لحلب. لقد كنت في غاية السعادة لتولي قيادة أكبر أسطول في العالم. ذلك الأسطول الذي يجعل أساطيل أوربا مجتمعة عاجزة عن إلحاق الهزيمة به.



وصرت على رأس أعظم أسطول في العالم...

هرعت على الفور إلى دار بناء السفن بإسطنبول. لقد كان للدولة عدد كبير من دور بناء السفن في كثير من المدن، إلا أن أكبرها كان في خليج القرن الذهبي. لم يكن لهذا المصنع نظير في جميع دول العالم لا في قدرته الكبيرة على استيعاب عدد هائل من السفن ولا في عدد العمال والصناع.

لقد كان مصنع بناء السفن يزخر بكل ما يخطر على البال من أرباب الصناعة والحرف. فالعمال والصناع كان معظمهم من الأسرى المسيحيين، أما الفنيون والمهندسون فقد كانوا جميعا من الأتراك.

لم يكن العمال المسيحيون يعملون مجانا؛ بل كانوا يأخذون أجرة مقابل عملهم. إذ تُجمَع لهم قيمة أعمالهم وتُدفع لهم في نهاية عملهم. وهكذا كان الكثير منهم يستعيدون حرياتهم ويتم إرسالهم إلى بلدانهم.

كما أن عدد العمال لم يكن يقل عن عشرين ألف عامل. وعند الحاجة كان بإمكاننا أن نقوم ببناء وتجهيز أسطول يضاهي أسطول جمهورية البندقية خلال سنة واحدة.

في الحقيقة لقد بلغت شهرة مصنع بناء السفن بإسطنبول

الآفاق، حتى أن كفار جمهورية البندقية كانوا يتوددون إلى مولانا السلطان خلال فترات الصلح بإهداء بعض سفنهم وإرسالها إلى مصنع إسطنبول.

لم يكن في وسعي تقدير مدى عظمة الأسطول العثماني قبل أن أتمكن من معاينته بنفسي. فبهذا المصنع الضخم وبدعم دولة على هذا القدر الكبير من الغنى، وقبل ذلك بإذن الله وتوفيقه يمكننا أن ننجح في تحقيق ما نصبو إليه.

اقترحت على إبراهيم باشا أن نقوم بتنظيم حملات نوجّهها للعالم الجديد(1) الذي اكتشف حديثا فَتَجْني من ذلك فوائد عظيمة. إلا أنه لم يأذن لنا معتذرا عن ذلك بضرورة الاكتفاء بفرض سيطرتنا على البحر المتوسط والمحيط الهندي(2).

---

(1) يقصد أمريكا التي كانت قد اكتشفت قبل سنوات قليلة من تاريخ هذه الحوادث.

(2) بسبب ازدياد خطر الإسبان الذين احتلوا جميع سواحل الشمال الإفريقي تقريبا، وقيام البرتغال بالالتفاف حول العالم الإسلامي من الخلف حتى بلغوا الهند وشكلوا خطرا كبيرا على البلدان الإسلامية المطلة عليه، كانت سياسة الدولة العثمانية ترمي إلى تأمين السواحل الإسلامية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الهندي. لمزيد من التفاصيل انظر : نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574) دار الفارابي بيروت، 2004، ط1، ص 43-51.

في الوقت الذي كنت أشرف فيه على تنظيم مصنع بناء السفن وبناء مراكب جديدة، كنت أقوم إلى جانب ذلك بالتجول في إسطنبول. فزرت خلال ذلك مراقد جميع السلاطين والأمراء العثمانيين، وقرأت على أرواحهم المباركة سورة الفاتحة. كما قمت بمساعدة كل من لقيته من المحتاجين وقضاء حوائجهم.

أدركت خلال ذلك بأن شهرتنا سبقتنا إلى إسطنبول. فقد وجدت الجميع يعرفونني وبلغتهم أخبار معاركنا التي خضناها في عرض البحر. لقد كان أهالي إسطنبول يكنون لنا قدرا كبير من الحب والتقدير وكنت أبادلهم نفس الشعور.

خلال حياتي زرت العديد من البلدان والممالك، ولم يكن سوى عدد قليل منها لم أتمكن من زيارتها. إلا أنني خلال سياحتي تلك لم أر بلدا يضاهي مضيق إسطنبول[1]. في جماله وروعته، فكأن كل زاوية منه قطعة من الجنة. سوف أشتري قطعة من الأرض محاذية للمضيق قريبا من بحر مرمرة أجعلها قبرا لي أدفن فيه إن شاء الله[2].

---

(1) يقصد مضيق البوسفور الذي يفصل بين الشطر الأوربي والشطر الآسيوي من مدينة إسطنبول.

(2) بالفعل اشترى خير الدين باشا قطعة أرض على ساحل باشكتاش المطل على مضيق البوسفور ودفن فيها. ولازال قبره معروفا حتى

-

أثار تعييني قبطان داريا على رأس الأسطول العثماني ردود أفعال كبيرة في أوربا، خصوصا لدى الملك كارلوس الذي شعر بقلق كبير من هذه الخطوة.

وعندما حل الربيع خرجت من إسطنبول في ثمانين سفينة من وحدات الأسطول العثماني حتى بلغت مضيق ماسينا. كانت موانئ مسينا تقع في سواحل شبه جزيرة صقلية المحاذية لسواحل روجيو **REGGIO** الإيطالية. استوليت عليها جميعا وحملت ستة عشر ألف أسير في سفني. في هذه الحملة قمت بفتح ثمان عشرة قلعة وأرسلت مفاتيحها مع ستة عشر ألف أسير وأربعمائة وخمسة وعشرين صندوقا كبيرا من الغنائم على متن أربعين سفينة من نوع قادرغة إلى إسطنبول. أما أنا فقد احتفظت بأربعين سفينة لبعض الوقت.

كان مولانا السلطان والوزير الأعظم الدامات إبراهيم باشا راضيين عن الإصلاحات التي قمت بها لتحديث الأسطول العثماني وكذا الانتصارات التي حققتها في عرض البحر. إلا

-

اليوم، وقد أسس إلى جانبه متحف البحرية وميناء لازال يحمل اسمه حتى اليوم بالإضافة إلى ساحة يتوسطها تمثال كبير له، تعرف باسم: ميدان بربروس.

أن بعض الحساد من رجال الدولة الذين أكلت الغيرة قلوبهم لم يخجلوا من أن يهمس بعضهم لبعض قائلين:

«انظروا إلى ما يفعله مولانا السلطان!. لقد عين قرصانا على رأس الأسطول العثماني برتبة قبطان داريا!!..».

إن أغلب هؤلاء الحاسدين الذين كانوا يتهامسون بِقالة السوء لم يفتح في حياته قلعة واحدة، ولم يستول على سفينة واحدة من سفن الأعداء، إلا أن مولانا السلطان لم يكن يدع فرصة تفوت دون أن يثني علي ويبدي إعجابه ورضاه عني. لقد كان تقديره يتضاعف مع مرور الأيام.

ولما رأى الحاسدون ذلك انقطعوا عن إظهار حسدهم والتهامس بما يكرهون. ولم يجدوا بدا من كتمان مشاعر الغيرة في أنفسهم لأنه لم يعد في وسعهم إظهارها والتعبير عنها.

كان أول خروج لي بصفتي قبطان داريا بعد حملة صقلية، أني توجهت إلى جزيرة سردينيا، ومن هناك إلى الجزائر ثم تونس التي فر سلطانها من شدة الخوف تاركا عاصمة ملكه ولجأ إلى الصحراء. فدخلت مدينة تونس. وفتحت سائر نواحي المملكة حتى بلغت القيروان في الجنوب ثم قفلت راجعا إلى تونس.

كان سلطان تونس ينتمي إلى الأسرة الحفصية التي فرضت نفوذها ذات يوم على كامل شمال إفريقيا.

لم يتأخر هذا السلطان في الاستنجاد بالملك كارلوس

لاستعادة عرشه. فلبى هذا الأخير الدعوة وعلمت بأنه سوف يتوجه إلى تونس لإخراجنا منها. ولأجل ذلك شرعت على الفور في الاستعداد للتصدي له.

في ذلك الشتاء أرسلت بعض سفني لضرب السواحل الإسبانية في غرب البحر المتوسط. وأما أسطولي الذي وجهته للإغارة على سواحل سردينيا فقد عاد محملا باثنتي عشرة ألف دوقة ذهبية، وأربعمائة وخمسة وسبعين أسيرا بالإضافة إلى غنائم أخرى.

وفي النهاية شوهد الملك كارلوس بنفسه على رأس أسطوله الكبير في سواحل تونس. كان الأسطول متشكلا من آلاف الجنود الذين تم حشدهم من الممالك الخاضعة لكارلوس مثل إسبانيا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وغيرها.

وصل كارلوس إلى تونس في خمسمائة قطعة بحرية بين سفن حربية وأخرى لنقل الجنود، وذلك بعد سبعة عشر يوما من مغادرته لميناء برشلونة.

كان الاستيلاء على تونس يستلزم احتلال قلعة حلق الوادي، ولمنع الإسبان من تحقيق ذلك كلفت سنان رئيس الذي كان أحد أحسن رياس البحر بالدفاع عن القلعة.

فرض الإسبان حصارا شديدا على القلعة. لقد كان كارلوس يتولى بنفسه قيادة جيشه الكافر، بينما تولى أندريا دوريا قيادة

الأسطول.

كان لدى سنان رئيس مائة وعشرون مدفعا، بينما كان العدو يملك مئات المدافع في البرية والبحرية.

نظم سنان رئيس ثلاث هجمات خاطفة على قوات العدو، تم خلالها قتل ستة آلاف جنديا من جنود الكفار. أما أنا فقد كنت في تونس أتربص بحذر ما سوف يقوم به سلطان تونس مولاي الحسن. كان معي اثني عشر ألف جندي، إلا أن نصفهم كان من المتطوعين البدو الذين لا يعرفون قواعد الحرب، ولا يترددون في الفرار أو الالتحاق بالعدو عندما تشتد عليهم وطأة الحرب.

كل ما كنت أرجوه هو الصمود لأطول مدة ممكنة في حلق الوادي، فقد أرسلت على جناح السرعة إلى إسطنبول أوامري بضرورة التعجيل بإرسال الأسطول العثماني إلى تونس. فإذا وصل الأسطول بالسرعة المطلوبة فإن كارلوس سوف يجد نفسه بين نارين ويمنى بذلك بهزيمة نكراء..

كان كارلوس يعلم هذا أيضا؛ ولذلك كان يستعجل احتلال حلق الوادي متغاضيا عن خسائره الكبيرة.

في الحملات التي قادها سنان رئيس على القوات الإسبانية تمكّن من قتل كل من أمير سارنو **SARNO** وأمير مونديا **MONDEA** اللَّذَين كانا أحد أشهر قادة الجيش الإسباني.

أما السلطان مولاي الحسن فقد كان في طريقه إلينا في ألف وستمائة فارس وثمانية آلاف جمل محمَّل بالطعام ولوازم الحرب. إلا أنه لما بدا أن سقوط قلعة حلق الوادي صارت مسألة وقت بدأت أمارات التذمر والثورة تظهر في تونس.

كنت على وشك الوقوع بين نارين عندما انقلب عليّ المتطوعون البدو الذين كانوا تحت إمرتي والبالغ عددهم ستة آلاف رجل. لقد قاموا بخيانتي متملقين للملك كارلوس علّهم يحظون برضاه عنهم، فلم أجد بدًّا من التعجيل بالانسحاب جنوبا.

بدأت خيانة أولئك البدو عندما كنت معسكِرا مع رجالي الستة آلاف أمام أسوار المدينة. إذ قاموا بفتح أبواب سجون المدينة لينطلق منها عشرة آلاف أسير نصراني كانوا فيها.

لا شك أن من بين هؤلاء البدو من كان يحمل مشاعر المودة للأتراك، وتمسكُّهم بدينهم كان يمنعهم من القيام بمثل هذه الخطوة الدنيئة. إلا أن عقولهم كانت قد تسممت بالدعاية التي أطلقها السلطان مولاي الحسن بواسطة جواسيسه الذين كانوا يشيعون بين الناس أن الإسبان إنما جاءوا لإنقاذ تونس من الأتراك، وأن ملكهم مولاي الحسن قد اتفق مع الملك كارلوس بأن الإسبان لن يريقوا قطرة دم مسلم عندما يدخلون المدينة.

لقد وجدنا أنفسنا وسط محيط معادي لنا. فمن جهة كان

علينا أن نتصدى لعشرة آلاف أسير الذين استولوا على المدينة من داخلها، وفي ذات الوقت كان علينا أن نقاتل العدو الكافر. إن هذا الوضع جعل صمودنا أمام العدو أمرا مستحيلا.

في هذه الأثناء سقطت قلعة حلق الوادي إلا أن سنان رئيس تمكن من الانسحاب إلى المدينة بمن بقي معه من البحارة الأتراك لينضم إلينا.

لقد استحق سنان رئيس تقديرا كبيرا بذلك الانسحاب بعدما قطعت الأمل في نجاتهم. إن كفاءته العالية مكنته من إنقاذ البحارة من الطوق الذي ضربه عليهم العدو.

بالرغم من ذلك كله دافعت عن تونس ستة أيام بعد سقوط قلعة حلق الوادي، وكبدت العدو خسائر كبيرة.

وبالتحاق البحارة الذين جاء بهم سنان رئيس من قلعة حلق الوادي ارتفع عدد قواتي إلى تسعة آلاف وسبعمائة جندي. إلا أن الجيش الإسباني المكون من ثلاثين ألف جندي وخمسمائة سفينة مجهزة بمئات المدافع، يسانده مولاي الحسن الذي سار إلينا في جيشه من الجنوب، جعل التصدي لهذه القوات مجتمعة في حكم المستحيل.

وزيادة على ذلك فإن أربعين مدفعا مع كميات كبيرة من ذخيرتنا الحربية استولى عليها العدو في حلق الوادي.

ذهب مولاي الحسن إلى معسكر كارلوس وقبّل رِجْلَيْ

الملك الكافر، وبفضله شرع في حشد قوات كبيرة من الأعراب لمحاربتنا.

في أول اشتباك لي مع الإسبان وحليفهم مولاي الحسن فقدت ألفين وخمسمائة شهيد. كانت مؤشرات الحرب توحي بأنه ليس في وسعي أن استمر في المعركة بمن بقي معي من الجنود البالغ عددهم سبعة آلاف ومائتي جندي. لقد كنا في وسط فصل الصيف والجو شديد الحرارة.

قمت بآخر حملة على العدو، إلا أنني عندما أردت الانسحاب إلى المدينة فوجئت بإغلاق الأهالي أبواب المدينة في وجهي. في الأساس كان ثمة أسير كافر أسلم حديثا يدعى جعفر قام بفتح أبواب السجن فاندفع الأسرى النصارى من زنازينهم وتفرقوا في أنحاء المدينة حيث تمكنوا من السيطرة عليها.

قمت بهجوم كبير لتشتيت صفوف العدو، كانت أصوات البحارة تدوي بصيحات «الله الله» فيتردد صداها في السماء لتنفلق من هولها قلوب الكفار.. في هذه المعركة سقط الآلاف من الشهداء، أكثرهم كان من مرعش. الله وحده يعلم كم تمنيت أن أكون شهيدا بينهم.

لم أكن لأفرح بنجاتي لولا أن الكثير من كبار نبلاء أوربا تحملوا مشقة ومخاطر الاشتراك في هذه الحملة فقط من أجل أن يستمتعوا بالتفرج عليَّ أساق مقيدا في الأغلال. إلا أن تلك

الرغبة تحولت إلى حسرة في قلوبهم عندما كتب الله لي النجاة. إنني أحمد الله الذي نجاني ولم يشمت بي الأعداء، ولن أدع دماء آلاف المسلمين التي أراقها كارلوس تذهب هدرا..

لم يبق معي سوى آيدين رئيس وسنان رئيس وبضعة آلاف من البحارة المثخنين بالجراح. إلا أننا كنا قد قمنا بتمزيق صفوف العدو وتشتيت شمله.

قطعت خليج تونس من بدايته إلى نهايته حتى بلغت بلد العُنَّاب[1] المطلّ على جنوب غرب جزيرة صقلية حيث كانت تنتظرني أربع عشرة سفينة حربية من نوع قادرغة. في هذه الأثناء غرق آيدين رئيس ومات شهيدا.

أدعو الله أن يجعله ممن تبوأ مكانة عالية في الجنة هو وجميع البحارة العظام الذين أنجبتهم الأمة التركية ممن ذاع صيتهم في سائر أنحاء أوربا بجهادهم ونكايتهم في العدو، وعلى رأسهم المرحوم كمال رئيس وأخي الذي تعلم على يديه.



(1) يقصد عنابة التي كانت تعرف ببلد العناب وبونة.

وحشية الصليبيين في تونس

كانت تونس إحدى أكبر المدن الإفريقية. وعندما اقتحمها الصليبيون قاموا بذبح ثلاثين ألف مسلم عربي واسترقاق عشرة آلاف امرأة وطفل، وخربوا المساجد والمدارس والمقابر ونهبوا محتويات القصور. كما قاموا بحرق آلاف المخطوطات والكتب التي كانت تزخر بها مكتبات تونس، فقضوا بذلك على شتى أنواع العلوم والفنون النادرة.

وعندما أدرك الكفار أنني قد أفلتُّ من أيديهم قاموا بإفراغ جام غضبهم على البؤساء من الأهالي المسلمين. وتفنّن الإسبان في التعبير عن أبشع ما تحمله نفوسهم الشريرة من سوء.

بعد مرور اثنتين وسبعين ساعة على حملة النهب والقتل والتدمير دخل الملك كارلوس المدينة بعدما حولها إلى خراب. لقد اصطبغت أرجل فرسه بلون الدم المتدفق من أشلاء الضحايا المتناثرة في أزقة وشوارع المدينة[1].

---

(1) شبه بعضهم المجزرة التي قام بها الإسبان بتلك التي قام بها الصليبيون في بيت المقدس عندما سقطت في أيديهم. وأشار ابن أبي الضياف إلى أن ثلث سكان تونس تمت إبادتهم وأسر ثلثهم وطمست معالم المدينة تماما. انظر : أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار

-

هكذا سقطت مدينة تونس وضواحيها، وخضع معها الحفصيون للإسبان؛ بينما بقيت المناطق الجنوبية وجميع السواحل الشرقية خاضعة لنا. أما تونس فكانت قد بقيت تحت إدارتنا أحد عشر شهرا.

وصلت إلى الجزائر قادما إليها من تونس، ومن هناك خرجت في اثنتين وثلاثين قطعة بحرية حتى بلغت جزر الباليار حيث أمرت بنهب جزيرتي ميورقة ومينورقة. وتمكنت من أسر خمسة آلاف وخمسمائة أسير من ميناء ماهون MAHON وبالما PALMA. بعد ذلك توغلت في المحيط الأطلسي عبر مضيق سبتة[1] وطفت بأسطولي في خليج كديز KADİZ الواقع بين إسبانيا والبرتغال حيث قمت بتخريب ميناء فارو FARO جنوب البرتغال.

استولينا في سواحل فارو على سفينة كبيرة من سفن البرتغال. كانت مجهزة بستة وسبعين مدفعا، على متنها ثلاثمائة بحار، ويدفعها مئات الجدافين. كانت السفينة قادمة من الهند محملة

-

ملوك تونس وعهد الأمان، تونس 1999، 2/ 12-13؛ وعن مجزرة تونس انظر أيضا : سميح إلتر الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ص 115.

(1) يقصد مضيق جبل طارق.

ببضائع هندية قيمة، بالإضافة إلى ستة وثلاثين ألف دينار ذهبي. لقد حال جمال السفينة وضخامتها دون إغراقي لها، فقمت بسحبها إلى الجزائر.

توجهت إلى إسطنبول بعد إقامة قصيرة في الجزائر، ومثلت بين يدي مولانا السلطان سليمان خان الذي تفضل بقبولي في مجلسه الخاص، حيث أطلعته بشكل مفصل على جميع ما جرى لي في غزواتي الأخيرة.

تفضل مولانا السلطان بقبول الهدايا التي أتحفته بها، والتي كانت عبارة عن مسبحة من اللؤلؤ وخاتم مصنوع من الماس وساعة ذهبية وثلاثة من الطيور النادرة. كانت قيمة هذه الهدايا تساوي اثنا عشر ألف أقجّة. وبعد ذلك قمت بزيارة الوزراء وسلمت لكل منهم هديته. دفعت إلى خزينة الدولة خمس الغنائم المقررة شرعا.

بعد أن أنهيت زياراتي الرسمية، مضيت إلى مصنع بناء السفن حيث جلست في مقر عملي واستعلمت عن التطورات التي حدثت في أثناء غيابي، ثم دعوت رئيس المهندسين وأمرته بالشروع في بناء ثلاثين سفينة من نوع قادرغة. ذلك لأنني كنت على وشك الخروج للغزو برفقة مولانا السلطان.

ولما اكتمل استعدادنا للغزو خرجت على رأس الأسطول العثماني بينما خرج مولانا السلطان برا على رأس جيش كبير حتى

بلغ سواحل بحر الأدرياتيك.

كانت هذه الحملة تستهدف جمهورية البندقية وإسبانيا. ذلك لأن مولانا السلطان كان يريد أن يستولي على ميناء أوترانتو **OTARANTO** الواقع جنوب شرق إيطاليا بعد أن يفتح جمهورية البندقية وجزيرة كورفو **KORFU** بالإضافة إلى إسبانيا.

عندما دخلت إلى بحر الأدرياتيك **ADRIYATIK** لمحت قطعة كبيرة من أسطول البندقية فأمرت على الفور بالهجوم عليه. فأغرقنا أربعة عشر سفينة من نوع قادرغة، واستولينا على ستة عشر سفينة أخرى من ذات النوع، بينما لاذت بقية وحدات الأسطول بالفرار.

جاء الوزراء والبيلربايات وكبار رجال الدولة إلى سفينة القيادة مهنئين لنا على هذا الظفر العظيم. ولم نلبث أن عاد مولانا السلطان إلى إسطنبول برا بينما رجعت أنا على رأس الأسطول.

في السنة الموالية خرجت للغزو في بحر إيجة **EGE** ، بينما غادر مولانا السلطان إسطنبول في حملة كبيرة لغزو البوغدان **BOĞDAN**.

في هذه المرة لم يكن قد بقي لكفار البندقية في بحر إيجة سوى جزر كربة وكاشوت **KAŞOT** التي كنت على وشك فتحها، كما كنت أتهيأ في الوقت ذاته لإحراق سواحل جزيرة كريت **GİRİRT** وإجبار البنادقة على توقيع معاهدة صلح. إلا أن

اعتداء محتملا من أندريا على أسطول صالح رئيس القادم من الإسكندرية جعلني أعطي أوامري بضرورة التوجه لحمايته أولا.

كان صالح رئيس قادما من مصر بكنوز الهند مرسلة من طرف الشاه كوجارات **KOCARA** أحد عظماء ملوك الهند إلى إسطنبول.

لقد أرسل إلينا بهادر شاه يطلب المدد لتطهير بحار الهند من البرتغاليين. ولذلك فبعد مغادرتي لإسطنبول بستة أيام، وقبل خروج مولانا السلطان للغزو بخمسة وعشرين يوما غادر سليمان باشا بيلرباي مصر ميناء السويس على رأس أسطول كبير متوجها إلى الهند.

لم يكن أندريا دوريا يكره أحدا على وجه الأرض بعدي سوى صالح رئيس. هذا الأخير الذي أفقدت شجاعته المذهلة وذكاؤه الخارق عقول ملوك وكبار قباطنة وقراصنة الكفار. وهاهو دوريا قد بلغه بأن صالح رئيس في طريقه إلى إسطنبول حاملا معه كنوز الهند، فخرج في إثره بأسطول كبير أملا في أن يضرب عصفورين بحجر واحد. إلا أنه سرعان ما تخلى عن حلمه عندما بلغه أنني أرسلت أربعين سفينةً لإمداد صالح رئيس، فلاذ بالفرار كعادته مختفيا في بعض موانئ البحر المتوسط.

بعد أن فتحت ثمانية وعشرين جزيرة وسبع قلاع كانت خاضعة لجمهورية البندقية، جعلت على كل منها حامية لحمايتها والدفاع عنها، أغرت على أغريبوز فبلغ عدد الأسرى الذين

وقعوا في أيدينا عشرين ألف أسير[1] أرسلتهم جميعا إلى إسطنبول.

ترامى إلى علمي بأن معظم أساطيل أوربا قد تم حشدها تحت قيادة أندريا دوريا في هذا المكان. وعلى إثر ذلك أرسلت تورغوت رئيس **TURGUT REİS** على رأس عشرين قادرغة لاستكشاف الأمر. إلا أنني لم أطق صبرا إلى حين عودة تورغوت رئيس فانطلقت بأسطولي من أغريبوز وقمت بمسح جنوب جزيرة مورة. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى مودون **MODON** كان الصليبيون قد حشدوا قواتهم في سواحل قورفو. فانطلقت من مودون وقطعت جنوب سواحل مورة متجها شمالا حتى دخلت خليج أرتا **ARTA KÖRFEZİ**.

كانت قلعة بروزة **PREVEZE** تقع في الزاوية الشمالية الغربية من هذا الخليج الصغير. كما كان مدخلها ضيقا جدا بحيث لم يكن في وسع العدو أن يدخل إلى خليج أرتا ما لم يقم بتدمير المدافع التركية المنصوبة على أسوار قلعة بروزة وهو ما

(1) يبدو لأول وهلة أن هذا الرقم مبالغ فيه إلا أنه بالتمعن في عدد الجزر والقلاع التي تم الاستيلاء عليها يبدو أن هذا العدد معقول جدا خصوصا وأنه في ذلك العصر كانت قوانين الحرب تقضي بأسر كل الأشخاص التابعين لدولة العدو عندما تفتح بلادهم عنوة هو ما يتضح من سياق الأحداث.

كان أمرا في غاية الصعوبة.

جمع الملك كارلوس أساطيل البندقية وجنوة والبابوية وفلورنسا ومالطا، وجعلها تحت إمرة أندريا دوريا. في حياتي لم أرَ ولم أسمع بل حتى في كتب التاريخ لم أقرأ عن أسطول بهذا الحجم[1]. لقد كان الأسطول مكونا من أكثر من ستمائة سفينة، منها ثلاثمائة وثمانية سفن حربية، ومائة وعشرون سفينة كبيرة لنقل الجنود. ويقوم بدفع الأسطول آلاف الجدافين. وتم نقل ستين ألف جندي على متن هذا الأسطول، حتى أن بعض السفن الضخمة كانت تُقِلّ على متنها ألفي جندي. فصارت تبدو كقلعة تسبح ببطء على سطح الماء من جراء ضخامتها وثقلها.

كان لديَّ مائة واثنتان وعشرون سفينة من نوع قادرغة، ولم يكن لدي سفن لنقل الجنود. وفي المعارك المفتوحة لم أكن في حاجة إلى سفن مساعدة. أما عدد المقاتلين فقد كان لدي عشرون

(1) ما ذكره خير الدين ليس من باب المبالغة بل صحيح. فالبحر المتوسط لم يعرف معركة بحرية بهذه الضخامة منذ معركة أكسيوم التي قادها ولي عهد إمبراطورية روما أوكتافيانوس ماركوس أنتونيوس ضد أسطول كليوبترا والتي وقعت في سواحل اليونان سنة 31 قبل الميلاد. انظر: محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر، رسالة دكتوراه لم تنشر، جامعة مرمرة، إسطنبول 2006، ص 186.

ألف جندي من رجال البحر والمدفعيين ما عدا الجذّافين. وعلى هذه الصورة فقد صار مجموع الرجال لكلا الطرفين المتحاربين بما في ذلك الجذّافين مائة وعشرين ألف رجل. إن اجتماع هذا العدد الهائل من المحاربين على سطح البحر في موضع واحد لا يمكن أن تراه العين أو تسمعه الأذن بل يصعب حتى تصوره.

دعوت رياس البحر إلى سفينة القيادة وتشاورت معهم جميعا. وبالرغم من الشجاعة الشديدة التي كان يتحلى بها تورغوت رئيس، والذكاء الحاد الذي اشتهر به صالح رئيس إلا أنهما أشارا علي بأن لا نغادر الخليج قبل انسحاب الصليبيين منه.

لم أوافق على هذا الراي. نعم كنت أدرك بأن العدو يفوقنا بثلاثة أو أربعة أضعاف، إلا أن قوتنا كانت تكمن في حسن إدارتنا لأسطولنا والمحافظة عليه من أن يكون عرضة للدمار. وبالرغم من فارق العدد إلا أن طبيعة المعركة التي وجدنا أنفسنا مضطرين لخوضها لم تترك لنا خيارا آخر غير التفكير في تحقيق النصر على العدو.

إن خوض معركة مع أسطول لم يُرَ ولم يُسمع بمثله في العالم كان حظا عاثرا بالنسبة لي، إلا أنه لم يكن في وسعي أن أدَعَ سواحلنا مكشوفة أمام الأسطول الصليبي. فلو فعلت ذلك فبأي وجه أقابل مولاي السلطان غدا !!

معركة بروزة[1]

خرجت من الخليج بعدما أخذت معي تورغوت رئيس، ولما علم أندريا دوريا بذلك أصيب بالذهول لأنه لم يكن يتوقع قيامي بهذه المناورة. لقد رفض القتال في ذلك اليوم لكي يتمكن من الاستعداد للمعركة. ولما انفتح أمامه منفذ في الشمال الغربي أخذ استعداده تحسبا لبدء المعركة. وفي الصباح الموالي وجدنا أنفسنا وجها لوجه مثلما حصل في الليلة السابقة.

في صبيحة اليوم التالي أخذت مكاني على رأس الأسطول العثماني في الجناح الأوسط. كان معي في سفينة القيادة ابني حسن رئيس وولدي المعنوي حسن رئيس الثاني، وكان على رأس الأساطيل المتمركزة في الجناح الأوسط الشيخ سنان رئيس، وجعفر رئيس، وشعبان رئيس.

وأما الجناح الأيمن فقد كان تحت قيادة الجناقلعي[2] صالح

---

(1) وقعت في خليج بروزة في 28 سبتمبر 1538 بين التحالف الأوربي المسيحي بقيادة أندريا دوريا وبين الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بربروس. وانتهت هذه المعركة بانتصار العثمانيين مما مكنهم من فرض سيطرتهم على حوض البحر المتوسط لمدة ثلاثين عاما تقريبا.

(2) نسبة إلى مدينة جناق قلعة Çanakkale التركية الواقعة على

-

رئيس ÇANAKKALI SALİH REİS، كما كان الجناح الأيسر تحت قيادة العالم والشاعر الكبير سيد علي رئيس[1]. وأما تورغوت رئيس فقد كان على رأس الأسطول الاحتياطي في المؤخرة، وجعلت الرياس مراد وصادق وقوزَلْجة محمد GÜZELCE MEHMET تحت إمرته.

كان العدو متفوقا علينا من عدة نواحي، إلا أننا كنا نتفوق عليه في جوانب أخرى أهمها أنني كنت متحكما في جميع وحدات أسطولي. فقد كان بإمكاني أن أطلب أيَّ قادرغة مهما كانت بعيدة. وبإزاء هذا كان العدو على خلاف ذلك، إذ لم يكن في وسع دوريا أن يتحكم في الأساطيل التي وضعت تحت يده؛ بل حتى أجنحة قواته كان عاجزا عن إدارتها والسيطرة عليها.

ومن جهة أخرى كان جنود العدو لا يفهم بعضهم لغة بعض، تسود بينهم مشاعر الحسد والبغضاء لكونهم استقدموا من أجناس وأعراق مختلفة لا يربط بينهم رابط. كما أن كبير أميرالات البندقية فينسانتي كابيلو VINCENTI CAPELLO

مضيق الدردنيل وكانت تعرف قديما باسم طروادة، وإليها ينسب حصان طروادة الشهير.

(1) كاتب المذكرات التي أملاها عليه خير الدين بربروس كما سلف بيانه في أول الكتاب.

وقائد أسطول البابوية غريماني ماركو GRIMANI MARCO كانا يكرهان دوريا.

وأما عامل تفوقنا الآخر فيرجع إلى كون مدى مدافعنا أطول من مدى مدافع العدو. ودون أن ننسى ذلك لحظة واحدة، يجب أن نذكّر بأنني كنت قد جعلت أسطولي في موقع يمكّن قذائف مدافعنا من دكّ سفن العدو؛ بينما تهوي قذائفه على مسافات بعيدة من سفننا متوارية في أعماق البحر. لقد كان ذلك يجعل قباطنة الكفر يتميزون من الغيظ دون أن يكونوا قادرين على فعل شيء.

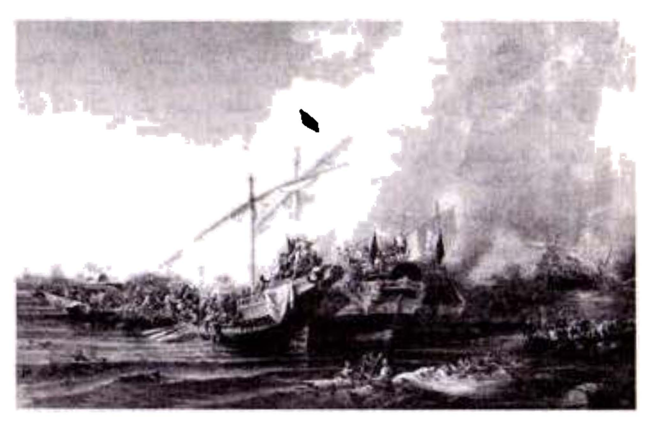
وفجأة جاءت لحظة لم تكن متوقعة، أدرك خلالها دوريا أنه قد بات في موقف يثير السخرية وذلك عندما أصدر أوامره لأساطيله بالاقتراب من أسطولنا. إلا أن هذه الأوامر عندما أراد تطبيقها تبين له بأنه قد تأخر كثيرا. لقد كنا كسرنا شوكة أسطول الكفار منذ وقت بعيد.

مكنتنا خفّة وحدات أسطولنا من الالتفاف حول سفن العدو الكبيرة التي كانت تتحرك ببطء شديد. فقد كانت سفننا الصغيرة تتوغل بسرعة حتى تجعل سفن العدو في مرمى مدافعنا، فتقصفها من أي ناحية تريد ثم تنسحب بسرعة، دون أن تتعرض للخطر.

كما كان ثمة عنصر آخر من عناصر تفوقنا على العدو. ويتمثل ذلك في أن بحارتنا كانوا يرتدون ألبسة خفيفة ويحملون

أسلحة خفيفة، بينما كان فرسان الكفّار مدجّجين بالدروع التي تغطي معظم أجسادهم وتعوق حركتهم. لقد جعل هذا الفارق بحارتنا يعملون السيف في رقاب العدو بخفة ورشاقة وبأقل قدر ممكن من الخسائر.

وأخيرا كان تفوقنا الأكبر يتمثل في قوة إيماننا، وتبعيتنا لمولانا سلطان العالم.



لوحة فنية عن معركة بروزة

دوريا في حالة يرثى لها

عندما بدأت المعركة كانت الرياح الجنوبية تهب بشدة مخالفة لاتجاه سفننا. وعند ذلك قمت بنثر بضعة أوراق مكتوب عليها آيات من القرآن الكريم على سطح البحر، ثم وقفت متضرعا إلى الله في ذلة وانكسار بأن يلطف بنا ويتولانا بحفظه ورحمته. فلم يمض وقت يسير حتى استجاب الله تعالى لدعائي ولم تلبث العاصفة أن هدأت قليلا ثم تغير اتجاهها.

ومثلما أسلفت لقد وجد دوريا نفسه أسيرا للمناورات البحرية التي كنت أقوم بها، والتي على أساسها كان يحدد طبيعة الحركة التي يتوجب عليه القيام بها. لقد كان في حالة يرثى لها عندما تبعثرت وحدات أسطوله تحت تأثير قذائف مدافعنا.

أمرت تورغوت أن يقوم بمطاردة سفن الكفار. ولما وجد دوريا نفسه بين نارين أصدر أوامره إلى أسطوله بالرجوع. كان الليل قد بدأ يرخي سدوله فانتهز دوريا الفرصة وأمر جميع سفنه بأن تطفئ مصابيحها.

إن هذه الخطوة تعكس مدى وضاعة دوريا، فضلا عن أنها كانت نذير شؤم عليه وعلى أسطوله. وتجلى ذلك في فراره بنصف الأسطول تحت جنح الظلام. إلا أنّ معظم سفنه الهاربة أصيبت بقذائف مدافعنا، فلم ينج منها سوى القليل.

كان نصف سفن الأسطول الذي أعده كارلوس ودوق البندقية بمساعدة البابا لمواجهتنا قد استقر في قاع البحر. لقد كانوا يحلمون بانتزاع البحر المتوسط من أيدينا ويستولوا على ممالكنا، بل تمادى بهم خيالهم الساذج إلى تقاسم ولايات مولانا السلطان، واتفقوا فيما بينهم على أيهم يملك هذه الولاية أو تلك.

دامت المعركة خمس ساعات، فقدنا خلالها بضعة سفن لنا. وبعد مطاردة العدو تحت جنح الظلام، تمكن تورغوت من الاستيلاء على عدد من السفن التي أصيبت بقذائفنا.

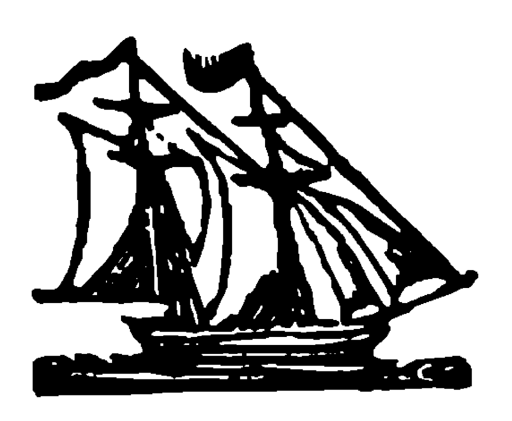
أما أنا فقد أمرت ولدي حسن رئيس بأن ينطلق على الفور إلى مولانا السلطان ليبشره بالنصر. فأدركه في أدرنة **EDİRNE** بعد سبعة عشر يوما من خروجه. كان السلطان في ذلك الوقت قافلا من حملته على البوغدان. ولما وصل حسن رئيس إليه استقبله في معسكره في يانبولو **YANBOLU**.

أمر مولانا السلطان بعقد اجتماع طارئ للديوان. وعندما اجتمع أعضاء الديوان، وقف حسن رئيس بين يدي السلطان وقبّل يده الشريفة، ثم قرأ عليه رسالة النصر التي بعثتُها إليه. فحمد السلطان الله وأنصت إلى البشرى وهو واقف على قدميه. وقبل غروب شمس ذلك اليوم أمر السلطان بأن تقام الاحتفالات في سائر أرجاء السلطنة احتفاء بهذا النصر المبين.

رجعت إلى إسطنبول بالأسطول السلطاني، فوجدت الأهالي قد أقاموا احتفالات كبيرة تعبيرا عن فرحهم بانتصارنا. وبعد

استراحة دامت بضعة أيام غادرت المدينة متوجها إلى أدرنة للقاء مولانا السلطان، الذي استقبلني في مجلسه الخاص. مكثت أياما في مجلس السلطان أقصُّ له على انفراد ما جرى في هذه المعركة بكل تفاصيلها.

في السنة التالية خرجت على رأس الأسطول فتوغلت في بحر الأدرياتيك. في هذه الحملة تمكَّن ابني حسن رئيس وصهره تورغوت رئيس من انتزاع قلعة نوا NOVA من جمهورية البندقية وفتحها، الأمر الذي دفع هذه الأخيرة إلى الخضوع وطلب الصلح. فعقدنا صلحا تخلَّت بموجبه البندقية لنا عن العديد من الجزر والقلاع، ودفعت لنا تعويضات كبيرة.



كارلوس يعرض عليّ خيانة مولاي السلطان !..

بعد معركة بروزة يئس الملك كارلوس من الانتصار على الأتراك في عرض البحر، فشرع يستعد للاستيلاء على شمال إفريقيا التي كان ولدي حسن باي يشرف عليها نيابة عني، بصفته وكيلا للبيلرباي. وعندما قاد حسن باي حملة مكونة من ثلاثين قادرغة على جبل طارق واستولى على قلعته، جاعلا منها قاعدة ينطلق منها للإغارة على الأراضي الإسبانية، جُنَّ جنون الإسبان. فكان من أثر ذلك أن صار كارلوس يتصرف بطريقة يائسة تدعو للسخرية. ذلك أنه أراد التغرير بي، إذ عرض عليَّ خيانة بلدي وسلطاني وديني وقومي فبعث إلي رسالة جاء فيها:

«إن تنزيلك من منصبك كملك للجزائر لتكون بيلربايا عليها حسبما تقضي به التقاليد العثمانية، يعتبر إهانة بالغة لك. وها أنذا أعرض عليك أن تتخلى عن خدمة السلطان سليمان، على أن أجعلك ملكا وحيدا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي. وليكن معلوما لديك بأنني لا أريد أن تكون حليفا لي، بل يكفي أن تكون صديقا لي، وتقطع صلتك بالعثمانيين. فهذا كل ما أريده منك».

قمت على الفور بتبليغ الديوان السلطاني برسالة الملك

كارلوس، وكتبت إلى الوزير الأعظم الداماد لطفي باشا قبل خروجنا لغزو إيطاليا خطابا جاء فيه:

«سيدي الباشا. إني أحذركم من التغافل عما يُعدُّ له كارلوس. فهو عندما يتبين له بأن مناورته هذه لن تأتي بنتيجة سوف يفكر في خطوة ماكرة أخرى. وفي تقديري بأنه سوف يستغل غيابي عن الجزائر ويجهز حملة عليها».

فكر لطفي باشا في الأمر ثم كتب إلي يقول:

«سيدي الباشا.. أنت تعرف الملك كارلوس أكثر مني، فقد أفنيتَ حياتك في محاربته. ولا شك أنك تدرك أكثر مني الاحتياط اللازم الذي يجب أخذه لحماية الجزائر، خصوصا وأن الأسطول موضوع تحت تصرفك. إلا أن نصيحتي لك هي أن لا تعجل برفض عرض الملك كارلوس، بل عليك أن تقوم بإلهائه وتسويف الرد عليه قدر ما تستطيع، ريثما تتضح لنا الأمور بشكل أفضل».

بناء على المراسلة التي جرت بيني وبين الوزير الأعظم، كتبت على الفور إلى أندريا دوريا -الذي عينه الملك كارلوس مفاوضا لي- جوابا مبهما جاء فيه:

«إنني على استعداد للتفاوض معكم بشأن العرض الذي تقدم به ملككم. إلا أن هذا لا يمكن أن يتم في إسطنبول خوفا من وصول الخبر إلى السلطان. فعليكم أن تبعثوا رسولا إلى نائبي بالجزائر، ولدي حسن باي».

انطلت الحيلة على الكافر دوريا، وسُرَّ سرورا عظيما عندما أبديت له رغبتي في خيانة دولتي. أما أنا فقد أرسلت سِرًّا إلى حسن باي بتعليماتي، أعلمه فيها بما يجب عليه أن يفعله. كما أمرته بإلهاء رُسُل الملك كارلوس مدة من الزمن، وخلال ذلك عليه أن يقوم بما يلزم من استعدادات لمواجهة أي تطورات مرتقبة.

لم يمض وقت طويل حتى وصلت رسل الملك كارلوس إلى الجزائر، فكان الوفد مكونا من ألونسو دي الاركون **ALONSO DU ALARKON** والقبطان فيرغارا **KAPTAN VERGARA** بمعية طبيب يهودي من رعايا الدولة العثمانية يدعى روميو **ROMEO**.

بعد أن مضت مدة على المفاوضات بين الجانبين، قام حسن باي بطرد الرسولين الكافرين الإسبانيين من الجزائر، وأمر بتوقيف الطبيب اليهودي لكونه من رعايا الدولة العثمانية، وأرسله إلى إسطنبول حيث أمرت بحبسه في سجن يدي كولة **YEDİ KULE**.

كان تطور الأحداث يوحي بأنه لم يعد في وسعنا أن نتمادى أكثر في إلهاء الملك كارلوس بعد مروره بهذه التجربة المريرة. إلا أن عقل الإفرنج لا ينظر إلى الأمور بنفس المنظار الذي ينظر إليه العقل التركي. وبيان ذلك أنه في هذه المرة كتب إليَّ حسن باي يعلمني بأن الملك كارلوس عرض عليه أن يجعله

ملكا على الجزائر، وكلف الحاكم الإسباني العام على وهران الكونت ألكوديت KONT ALKODET لإقناعه بتلك بالخيانة.

كنت أعرف ألكوديت جيدا بأنه كافر إسباني في غاية التعصب، إلا أنه والحق يقال كان شيخا شجاعا، وكان يعلم بأن ابني ووكيلي لا يمكن أن يخون ملكه ودولته من أجل تاج ملكي. لكن ماذا عساه أن يفعل إذا كانت الأوامر فوقية ولا يسعه إلا تنفيذها؟!..

أما أنا فقد كتبت إلى حسن باي أطلب منه أن يستمر في إلهاء الكونت، وبذلك كانت مواقفنا مطابقة لسياسة الوزير الأعظم.

كتب حسن باي إلى الكونت يقول له:

«إنكم تعتقدون بأنني قادر على انتزاع الجزائر من السلطان سليمان ولأجل ذلك عرضتم علي هذا الأمر. ولا ريب أنني أريد أن أدخل بين الملوك في صراعهم على الجزائر. إلا أنه يجب أن تعلموا بأنني عندما أخطو خطوة واحدة في هذا الطريق، فإن آلاف البحارة المعسكرين على ظهر الأسطول التركي سوف يقومون بتقييدي بالسلاسل وإرسالي إلى إسطنبول. ولذلك أرى بأنه عندما يرسل ملككم جيشه الكثيف، ويرسو أسطوله في سواحل الجزائر فإنني لن أدافع عن المدينة، وهناك يمكنكم القضاء على الأسطول التركي. وحينما تتمكنون من الاستيلاء على المدينة سوف تكون الجزائر كلها لكم».

كنت أتوقع بنسبة ضئيلة جدا أن يبتلع كل من الكونت ودوريا وملك إسبانيا العظيم هذا الطعم بسهولة. إلا أن سرعة تصديقهم لي ولحسن باي بأننا سوف ننجرف معهم في مسار الخيانة الذي عرضوه علينا وأخذهم لذلك مأخذ الجدّ جعل حسن باي يصاب بالذهول !..

كتبت إلى حسن باي أطلب منه بأن يقوم بإلهائه ريثما آتي بالأسطول العثماني من إسطنبول، فأدفن جميع سفن الكفار في أعماق البحر. إلا أنه لم يكن في وسعي التعجيل بالذهاب إلى الجزائر، لأنه ليس كارلوس -فحسب- بل جميع قراصنته لن يتجرّؤوا على الاقتراب من سواحل الجزائر عندما يرون الأسطول العثماني في غرب البحر المتوسط. وسيدفعهم الخوف إلى الاحتماء خلف أسوار أول قلعة يصادفونها في طريقهم.

هكذا قضينا ثلاث سنوات منذ معركة بروزة، وحتى حملة كارلوس على الجزائر في مناورات سياسية كانت تبدو سخيفة جدا...

في الوقت الذي كان فيه مولانا السلطان سليمان خان عائدا إلى إسطنبول من حملته السلطانية التاسعة، كان الملك كارلوس يحشد قواته لغزو الجزائر. لقد كان من المؤكد بأن الاستيلاء على الجزائر سوف يهدد الوجود العثماني بأكمله في شمال إفريقيا.

كان الأسطول الصليبي الذي جمعه كارلوس مكونا من

خمسمائة وست عشرة سفينة، منها مائتان وأربع وسبعين قادرغة. وأما بقيتها فكانت عبارة عن سفن حربية معدة لخوض المعارك البحرية. دُعِّم هذا الأسطول بخمس وستين سفينة عملاقة، كل واحدة منها كانت تبدو وكأنها قلعة تسبح في عرض البحر.

وأما عدد الجنود الذين استُقدِموا -عدا الجدّافين- فقد بلغ: اثني عشر ألفا وثلاثمائة وثلاثين بحارا، وثلاثة وعشرين ألفا وتسعمائة جندي من القوات البرية. فصار مجموع المحاربين ستة وثلاثين ألفا ومائتين وثلاثين جنديا. وفوق هذا كانت الحملة الصليبية مدعومة بفصائل عسكرية مختلفة.

لم يكن ثمة أدنى شك في أن هذه الحملة التي تولى كارلوس قيادتها بنفسه سوف تُتَوَّج بالاستيلاء على الجزائر. ومن أجل ذلك كان قادة أوربا ونبلاؤها يتوقون للاشتراك في هذه الحملة إلى جانب ملوكهم. فكان على رأس هؤلاء أشهر نبلاء وأمراء إسبانيا وألمانيا وإيطاليا، الذين أبوا إلا أن يرافقوا الملك كارلوس في هذه الحملة.

***

رسالة الملك كارلوس

كان مع حسن باي ستمائة بحار تركي، وألفي فارس عربي متطوع. ولكي لا يتعرض أسطوله للتدمير، كان من الضروري أن يقوم بإبعاده عن مدينة الجزائر. وعليه؛ فقد كان من الطبيعي أن يركب معظم البحارة سفنهم، ويبتعدوا بها عن ميناء المدينة.

في اليوم الذي خرج فيه الملك كارلوس لغزو الجزائر[1] كتب إلى حسن باي رسالة باللغة التركية يقول له فيها:

«إن القوة التي تراها اليوم ليس أنت فحسب، بل إن سيدك الكبير لا يقدر على صدِّها. فإذا كانت لك عينان مفتوحتان وتملك ذرة من العقل، ألق سلاحك واربط رأسك بمنديل، وأْتِني بمفاتيح قلعة الجزائر. وإذا قدِمتَ عليَّ وقبَّلت الأرض بين يدَيَّ سوف أعفو عنك. فأنا ملك إسبانيا ونابولي وصقلية وهولندا وبلجيكا وأمريكا، وإمبراطور ألمانيا. إن أباك وسيدك بربروس فرَّ فزعا مني بتونس لا يَلْوِي على شيء. فحذار أن تفقد عقلك وتشهر السلاح في وجهي، لأنك إن فعلت ذلك فإنني أقسم بعيسى بأني سوف أُمَزِّقك، وأُعلِّق أشلاءك على

(1) كان ذلك في 20 أكتوبر 1541 (يلماز أوزتونا)

أبراج الجزائر...!».

فأجابه ولدي قارة حسن باي:

«إن قلعة الجزائر ليست ملكا لي حتى أُسَلِّمَها لك. ولن أُمَكِّنك من بلد مولانا السلطان سليمان لأبوء بخسارة الدنيا والآخرة. وليَكُن معلوما لديك بأن قلبي لا يحمل ذرة خوف منك. فأنت قد أمضيت حياتك في تلقي هزائم شنيعة أمام والدي خير الدين باشا، وأنا على يقين بأن الله تعالى سوف ينصرني عليك».

شرع كارلوس في مهاجمة القلعة بفرقه العسكرية الشجاعة. إلا أن المقاومة الباسلة التي قوبل بها في اليوم الأول جعلته يصاب بالذهول. ولما حل المساء سمح لعساكره بأن يأخذوا قسطا من الراحة في خيامهم. وفي صباح اليوم التالي وجد نفسه مضطرا إلى التراجع عندما أحس بأن قواته على وشك الانهزام.

«أيتها الليلة المباركة ليكن فيك ما هو مقدَّر في عالم الغيب.. إن أرض الجزائر التي امتزج ترابها بدماء أخي عرّوج وآلاف الشهداء من رفاقه الذين قدموا من الأناضول والروملي أترى ها ستبقى بأيدينا أم ستسقط في يد الكافر؟!.. لا ريب أن ذلك كله سوف يتبين في هذه الليلة..».

أنزل الكفار من سفنهم مئات الجِرار المملوءة خمرا، وجعلوا يعاقرونها حتى الثمالة محتفلين باستيلائهم على مدينة الجزائر

التي كانوا يتوقعون سقوطها في أيديهم صبيحة اليوم التالي. وبينما قضوا ليلتهم تلك في لهو ومجون؛ لم يكن البحارة الذين تحصنوا بقلعة الجزائر والذين لم يكن عددهم يزيد عن ستمائة رجل يحملون في قلوبهم ذرة خوف من الإسبان..

دسَّ حسن باي جواسيسه في صفوف العدو بعدما ارتدَوْا ملابس فرسان إسبانيا. لقد كان كثير من بحارتنا يجيدون التحدث بالإسبانية كما لو كانت لغتهم الأم. بل كان من بينهم من أمضى عشر سنوات أسيرا يجدف السفن الإسبانية.

أعلم الجواسيس حسن باشا بأحوال الإسبان، فأدرك ولدي بأنه إذا كان ثمة شيء يمكن فعله فهذه الليلة هي الوقت المناسب لذلك، وإلا فإن الأمر سوف يكون سيئا جدا في الصباح. ولأجل ذلك أمر بحارته ومن معهم من المتطوعين بسلوك طريق جبلي حتى ينزلوا خلف معسكر العدو.

في هذه الأثناء غاب القمر خلف الغيوم وساد الجو ظلام دامس. وسرعان ما بدأت الأمطار تنزل بغزارة، قبل أن تتحول إلى عاصفة شديدة. كانت تلك العلامات تشعرنا بأن الله عز وجل يريد أن يرينا بأنه مع عباده المجاهدين بنصره وتأييده.

توغل رجالي في صفوف العدو. ولم يكن الظلام الحالك والعاصفة الشديدة هما اللذان حجبا الرؤية عن الإسبان فحسب؛ بل إن الله سبحانه كان قد ألقى على عيونهم ستائر الغفلة. فقد

كان جنود العُدو في حالة سكر شديد، وقد ألجأتهم شدة المطر إلى الاحتماء بخيامهم كالكلاب الضالة. أما الحراس فقد تركوا مواقعهم وتناثروا هنا وهناك، كل منهم يبحث عن مكان يقيه من هول العاصفة.

«يا من جلت قدرتك أنت الذي تلطفت بنصرة فئة قليلة من عبادك المجاهدين، بهذه العاصفة التي تعبث بالكافر كارلوس وأسطوله لتتقاذفه الأمواج المتلاطمة. إن ذلك لدليل لطفك ورحمتك».



جاء التركي الكبير

بدأت بوادر لطف الله تعالى تتجلى في حبات البَرَد الذي أخذ ينزل في حجم حبات البيض، فلم يبق في المعسكر كافر واحد قادر على الاحتماء بخيمه. وبإزاء ذلك أخذ هيجان البحر يتصاعد حتى غدا كقِدر في ذروة غليانه. وشرع الكفار في العمل على تفادي غرق سفنهم وزوارقهم.

وفي منتصف الليل أغار حسن باي على معسكر العدو، وأعمل السيف في رقاب جنوده. فأخذ الكفار يصرخون مذعورين «**لقد عاد بربروس من إسطنبول.. لقد جاء التركي الكبير!.**». وعلى وقع المفاجأة كان ثلاثة آلاف كافر قد سقطوا تحت ضربات سيوف البحارة.

لم ينم الكفار حتى الصباح، واستقبلوا طلوع الشمس في حالة يرثى لها. إلا أن مفاجآت اليوم الجديد لم تكن تحمل لهم ما يسرهم. لقد كانت مشاعر الخوف والتردد والعصبية مسيطرة على قلب وعقل الملك كارلوس، لأنه كان ينتظر في قلق شديد أن تلوح في الأفق أشرعة الأسطول العثماني بين لحظة وأخرى.

بالرغم من أجواء التوتر التي كانت تسيطر على العدو، إلاّ أن وضعية ولدي قارة حسن لم تكن تدعو للارتياح. فأهالي الجزائر لا يزالون يتذكرون ما حدث لمدينة تونس

وأهاليها قبل بضعة أعوام. ولذلك كانوا يريدون إجبار الأتراك على الاستسلام غير أن الأحداث كانت توحي بأن الذي يتمكن من الثبات سوف ينتصر.

لم يكن يبدو على الملك كارلوس شيء من هذا الثبات. بل كانت الأحوال الجوية الآخذة في السوء توحي بأن الله قد أنزل غضبه على هؤلاء الكفار. فقد أصدر أوامره إلى جنوده بالعودة إلى الأسطول، كما أمر دوريا بأن يكون على أهبة الاستعداد للتحرك بالأسطول ومغادرة الجزائر.

كان حسن يراقب انسحاب العدو من مواقعه وتدفق قواته نحو الساحل كالسيل الجارف، حيث أخذ رجاله يتدافعون على السفن للنجاة بأنفسهم. وهنا انتهز الفرصة ليشن هجوما مباغتا عليه.

وما إن رأى البدو انسحاب العدو حتى كادت عقولهم تطير من شدة الفرح، فقويت نفوسهم واندفع الآلاف منهم من تلقاء أنفسهم وسط البحارة تحدوهم الرغبة في الغنيمة.

كان جنود العدو قد أنهكهم الجوع والعطش، وخارت قواهم من شدة التعب. وسيطر الرعب على الملك كارلوس حتى لم يعد قادرا على تحديد الوجهة التي يجب أن يلوذ بها. فقد تلاشت قواته تماما، وضاعف من متاعبه جهله بالبلاد التي أراد غزوها، فكثرت أخطاؤه الحربية التي استغلها جميعا حسن باي لصالحه.

اضطر العدو إلى إنزال أكثر من نصف أسطوله إلى البر بسبب العواصف الشديدة، إلا أنه لم يتمكن من ربطها ببعضها البعض حتى لا تجرفها المياه. فانتهز البحارة تطور الأمور على النحو الذي أشرنا إليه فقاموا بربط سفن العدو وسحبها إلى الجزائر، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بالاستيلاء على جميع ما خلَّفه كارلوس من مدافع وذخائر وآلات الحرب.

على هذا النحو وفي هذه الظروف تم القضاء على عشرين ألف كافر إما غرقا وإما بسيوف البحارة، ومن نجا منهم وقع في الأسر. كان في أسطول العدو أربعة آلاف فرس، تلفت كلها إمّا غرقا وإمّا نحرا من طرف الكفار، الذين تاهوا في أطراف البلاد ولم يجدوا ما يأكلونه سوى خيولهم. لقد كانت تلك الأفراس من أجمل الخيول التي لا تقدر بثمن.

استولى البحارة على مدافع العدو، وشرع جنوده الذين نجَوْا من القتل والغرق في تسليم أنفسهم جماعات وفرادى. وأما بارود العدو فقد تبلل بالماء ولم يعد يصلح للاستعمال. كما علق كفار إسبانيا الذين كانوا يلبسون دروعا معدنية في الأراضي الموحلة. وتناثرت جثثهم، وأشلاء حيواناتهم المفتتة على مسافات طويلة من ساحل الجزائر. وتكدست آلاف الجثث الأخرى تحت أنقاض السفن المحطمة. وعندما كان الكفار يلوذون بالفرار لم يتمكنوا من حمل أي شيء ثمين معهم في

سفنهم، بل وقع كل ذلك في أيدي بحارتنا.

ازدادت مدينة الجزائر غنى بغنائم هذه الحملة. ووقع عدد كبير من الجنرالات والأميرالات والدوقات والأمراء والأميرات والنبلاء والفرسان وغيرهم من أبناء القصور والعائلات الكبيرة في الأسر. لقد قدم هؤلاء جميعا من مختلف عواصم أوروبا ليستمتعوا بمشاهدة احتلال الجزائر. وفي هذه الحملة لم يتمكّن دوريا ومن معه من إنقاذ أنفسهم إلاّ بصعوبة بالغة.

إنّ هذا الظالم العائد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة قد قام بإحراق آلاف البشر في العالم الجديد"[1]. فأراد هذا الملعون الكافر أن يتسلط على الجزائر لأنه ظن بأنها مثل العالم الجديد. الويل لبلدة مسلمة تقع في يد هذا الظالم.. ترى كيف سيكون مصيرها؟.. لقد ضرب لنا الكافر مثل السوء عن ذلك في تونس قبل سنوات مضت..

***

(1) يشير بذلك إلى أمريكا التي اكتشفت حديثا، ولم يكن اسم «أمريكا» قد أطلق عليها بعد في هذه المرحلة حسبما يفهم من سياق النص. كما يلاحظ أن أخبار الإبادة الجماعية التي كان الإسبان يقومون بها في حق الهنود الحمر قد بلغت خير الدين باشا حتى صارت يضرب بها المثل في الوحشية.

الملك يأكل لحم فرسه !

كان دوريا يمطر البحارة بوابل من القذائف من سفنه الحربية. غير أن تلك القذائف لم يكن لها تأثير يُذْكر سوى إثارة البحارة واستفزازهم مما جعلهم يصرُّون على التصدي له وإلحاق الهزيمة به.

في هذه الحملة ساق النصارى معهم آلاف المسلمين لاستخدامهم جدافين في السفن. ونتيجة للعواصف التي أشرنا إليها غرق الآلاف من هؤلاء البؤساء في البحر. إلا أن عزيمة وإصرار حسن باي مكَّنتاه من تخليص ألف وثمانمائة أسير.

وأما دوريا فقد تعرضت سفينة القيادة التي كان يركبها للغرق. بينما نجا ذلك الجنوي[1] الكافر بجلده عندما قفز من سفينته الغارقة وركب سفينة أخرى ولاذ بالفرار.

كانت وضعية الصليبيين قد بلغت درجة من السوء يعجز اللسان عن وصفها. وأما الملك كارلوس فإنه في الوقت الذي كان يملك نصف أوروبا إلا أن الهزيمة الشنعاء التي مني بها أمام أسوار الجزائر دفعته إلى ذبح فرسه الثمينة ليقتات بلحمها !..

---

(1) نسبة إلى مدينة جنوة الإيطالية التي ينحدر منها أندريا دوريا. فهو لم يكن إسبانيا وإنما كان قرصانا مرتزقا عند الملك كارلوس.

وعندما كان يلوذ بالفرار من الجزائر مهزوما خلع تاجه من رأسه وألقى به في البحر من شدة الغيظ. لقد شُغل باله بمولانا السلطان سليمان خان ورام الانتصار عليه مع أنه لم ينشأ قط نشأة عسكرية مثل مولانا السلطان، ولم يَتوَلَّ قيادة أي جيش بمفرده طيلة حياته. وفوق ذلك كان جاهلا كليًّا بفنون الحرب وعلوم البحار. فأنى له أن ينتصر على مولانا السلطان سليمان خان؟!

إن هذا الملك المغرور بنفسه وقواته كاد أن يقع في الأسر لولا حماية فرسان مالطا له وقلة رجال حسن باي.

لم يتمكن الأسطول الصليبي من الإقامة في أرض الجزائر المباركة سوى ثلاثة عشر يوما. بينما كانت ثلاثة أيام كافية للقضاء عليه قضاء مُبرَما، لتنسحب -بعد ذلك- السفن المهزومة إلى موانئ إسبانيا وإيطاليا محملة بالصليبيين المتَّشحين بأردية الخذلان أمام سيوف الأتراك. لقد كان لتلك الهزيمة دوي كبير في شتى أنحاء أوربا حتى غدت غُصَّة في حلوق الصليبيين تخنق عَبَرَاتهم من شدة التأثر.

بعد هذا الانتصار الكبير أطلق على ولدي حسن باي لقب «الغازي»، وقد كانت رتبته العسكرية في هذا الوقت هي: «**بحرية سنجق بايي**»[1]. وبعد هذه المعركة بفترة قصيرة وصلتُ

(1) أي قائد لواء البحرية.

إلى الجزائر وقمت بجولة في أرض المعركة. لقد كان سبب تأخري يعود إلى أني لم أكن أتوقع هجوم الملك كارلوس على الجزائر بهذه السرعة.

إن هزيمة كارلوس لم تكن على يد مولانا السلطان أو الوزير الأعظم أو أي وزير من وزرائه ولا حتى على يد بيلربايي، لقد كانت على يد قائد لواء البحرية !!. إن أوربا لم تعش منذ عصور طويلة على وقع هزيمة مُدَوِّيَة لملك كبير كهذه، ولذلك فإن هذه الهزيمة سوف تحفر في ذاكرة التاريخ على أنها من الحوادث النادرة التي قلما تتكرر.

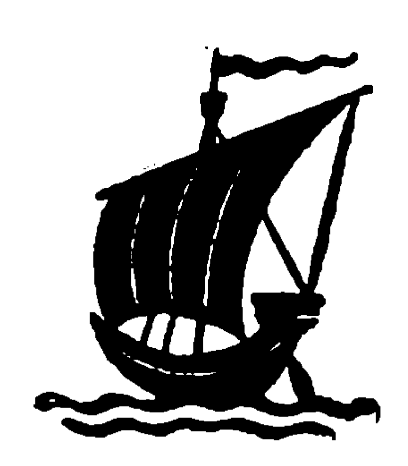
إن كارلوس هذا هو نفس الملك الذي سبق أن انتصر على ملك كافر كبير مثل ملك فرنسا المدعو فرنسوا الأول، وأخذه أسيرا بعد معركة لم تدم سوى بضع ساعات!!..

بعد المعركة استخرج ولدي حسن من سفن الكفار الغارقة قرب الجزائر مائة وخمسين مدفعا، حيث تم تصليحها وسحبها إلى الجزائر. لقد كان عدد الأسرى كبيرا جدا فتم توزيع العديد منهم هنا وهناك على سبيل الهدية. وبسبب كثرتهم الأسرى فإن أسعار العبيد نزلت بشكل كبير جدا في سوق الرقيق. ومن جهة أخرى فإن حسن باي قام بشحن ثلاثين سفينة من نوع قادرغة بأنفس الهدايا التي خصصها لمولانا السلطان سليمان خان.

بعد تلك الزيارة غادرت الجزائر متوجها إلى إسطنبول التي

وصلتها بعد واحد وعشرين يوما. لقد جعلت الهدايا المرسلة إلى مولانا السلطان نيران الحسد تضطرم في قلوب ملوك العصر.

وأما قيادة الأسطول المحمل بالهدايا، فقد كان على رأسه دلي محمد رئيس الذي قام بزيارتي وتقبيل يدي بمجرد وصوله إلى إسطنبول، حيث تحدثت معه وسألته مطمئنا على أحواله قبل أن يسلمني رسالة ولدي حسن باي. قرأت الرسالة وسررت بها سرورا عظيما، ثم خرجنا متجهين إلى قصر السلطان أنا في المقدمة وخلفي دلي محمد رئيس متبوعا بثلاثين قبطانا يرافقهم عدد من البحارة يرتدون أزياء موشاة بخيوط ذهبية ويحملون الهدايا التي كانت ستقدم لمولانا السلطان.



عشرات الآلاف من العمال يشتغلون في المصنع السلطاني لبناء السفن

لم يأذن السلطان سوى لي ولمحمد رئيس وأربعة أو خمسة من كبار رياس البحر بالمثول بين يديه وأما الآخرون فقد كانوا ينتظرون خارج مجلسه السلطاني. سلمت رسالة حسن باي لمولانا السلطان، فقام بفتحها وقراءتها بنفسه على غير ما كانت تقضي به الأصول في استقباله لمثل هذه الرسائل. فأشرق وجهه عندما قرأها وأمر لرياس البحر بمائتي دينار وللبحارة بمائة دينار. كما أمر لكلّ رئيس من رياس البحر الذين تشرفوا بالمثول بين يديه بخِلْعَة سلطانية. وتكرَّم مولانا السلطان بقبول ألف أسير بعث بهم حسن باي كجَذّافين للسفن. كما منح ولدي نيشان رتبة البيلربايلك والباشوية[1]. لا شك بأن ولدي عندما يرى هذا التكريم سوف يبكي من شدة الفرح بهذه الحظوة التي نالها لدى مولانا السلطان، فهو قد صار في نفس رتبتي التي كنت أحتلها يومئذ.

---

(1) كانت هذه الرتبة تعني بأن حسن باي قد صار بيلربايا على الجزائر منذ هذا التاريخ. وقد عينه السلطان بهذه الرتبة مكافأة له على الانتصار الساحق الذي حققه بدحره لحملة شارلكان على الجزائر.

كان بعض بحارة الجزائر يزورون إسطنبول لأول مرة، ذلك لأن أكثرهم كانوا من أبناء قرى الأناضول ومن هناك ذهبوا إلى الجزائر وقليل منهم من قدم من المدن الكبيرة.

انبهر البحارة عندما رأوا إسطنبول وتجولوا في مضيقها(1) وزاروا حصونها وقلاعها وأسوارها المنيعة. وكم كانت دهشتهم عظيمة لما رأوا المصنع السلطاني لبناء السفن الذي كان يعُجُّ بعشرات الآلاف من العمال -بل قريبا من مئة ألف عامل- كلهم يشتغلون فيه كأنهم خلية نحل، فحمدوا الله كثيرا على كونهم تابعين لدولة على هذا القدر من القوة والعظمة.

وَلَيْتُ البحارة عناية خاصة، ولم أقصِّر في جعلهم يستمتعون بمختلف الأطعمة كالرقائق المحشية والبقلاوة. وخلال ذلك استقبلهم أثرياء إسطنبول المحبُّون للضيف في قصورهم الساحلية وقاموا بإكرامهم مثل كبار الباشوات.

قدم عدد من الشباب الراغبين في التجنيد من الأناضول، فأرسلت ثلاثمائة منهم ممن لهم معرفة بالبحرية. وأما الآخرون فقد عينتهم في مصنع بناء السفن لكي يتعلموا ويتدربوا هناك. كما قمت بتجهيز خمس سفن من نوع قادرغة وشحنتها بالأسلحة

(1) يقصد مضيق البوسفور .

والذخائر ولوازم السفن وسلمتها لِدَلي محمد رئيس لكي يقوم بأخذها معه إلى الجزائر.

غادر محمد رئيس إسطنبول في خمس وثلاثين قطعة بحرية، فخرج مولانا السلطان سليمان خان لتوديعه إلى سراي بورنو[1]. فأخذت جميع السفن في إطلاق قذائف مدافعها في الهواء تحية لسلطان العالم. وبعد سبعة عشر يوما من السفر وصل القطع البحرية العثمانية إلى الجزائر.

أرسل مولانا السلطان بعد بضعة أيام خمس سفن أخرى إلى حسن باشا. كما بعث إليه بسيف مرصع ونيشان النصر ليضعه على عمامته، وساعة مزينة بالجواهر، وخاتم مرصع بالعقيق، بالإضافة إلى الراية والخلعة السلطانية. وبهذا التكريم أصبح ولدي رسميا يدعى «الغازي قارة حسن باشا». أما ولدي فقد بعث إليّ بخمسمائة أسير هدية، فتساءلت: «ماذا عساي أن أفعل بكل هؤلاء العبيد؟» ثمّ لم ألبث أم وهبتهم جميعا للدولة.

ومن ناحية أخرى بلغني أن الملك كارلوس أمضى شهورا عديدة معتكفا في الكنيسة لا يغادرها إلى غيرها، بل أشيع عنه

(1) سراي بورنو: هو الجزء الناتئ من الشطر الأوربي لمدينة إسطنبول، وعليه يقع قصر طوب كابي أي القصر السلطاني في ذلك الوقت. وفي أسفله حديقة كول خانة الشهيرة.

بأنه مات من شدة القهر"[1].

وهنا يمكنني أن أضع نهاية لمذكراتي، وأختمها بحمد الله عز وجل الذي أتاح لي -أنا العبد الضعيف- فرصا عديدة مكنتني من خدمة ديني ودولتي وسلطاني"[2].

***

تمت بحمد الله

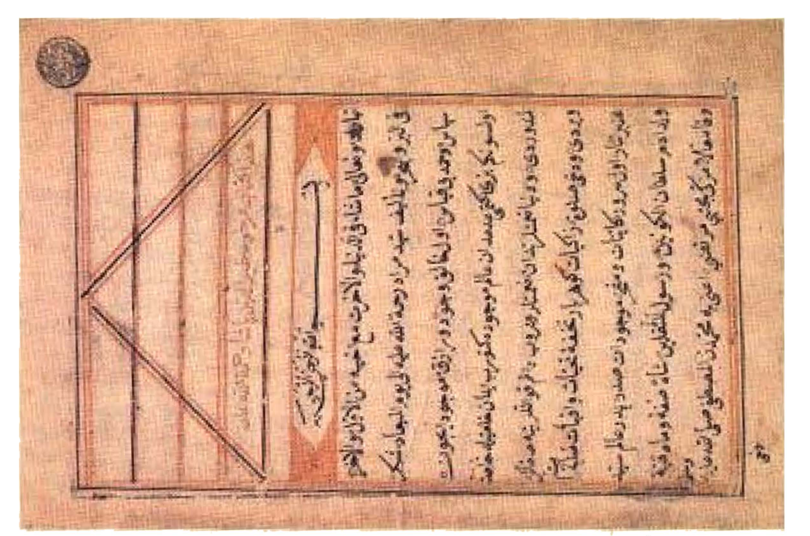
---

(1) يقصد أنه مات من شدة القهر الذي أصابه نتيجة للهزيمة التي مني بها في حملته على الجزائر.

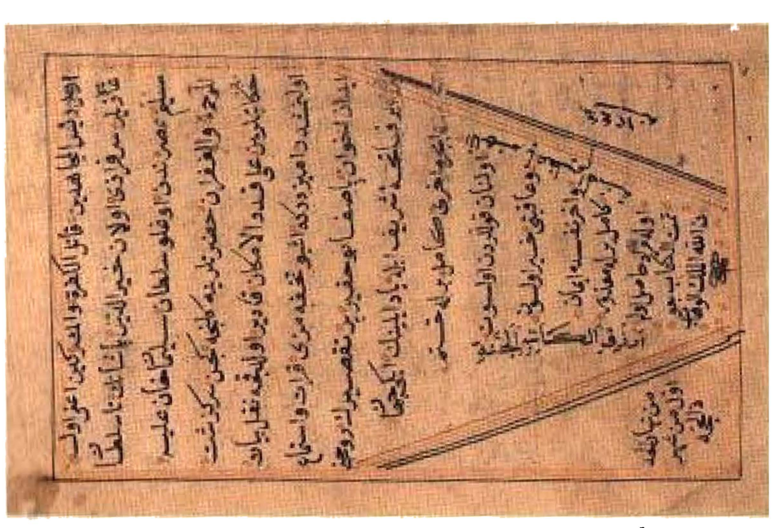
(2) بين سنتي 1543 و 1544 خرج خير الدين بربروس في حملة على فرنسا بناء على استنجاد ملكها فرنسوا الأول، وذلك لتحرير مدنها الجنوبية من الاحتلال الإسباني فعسكر خير الدين في مرسيليا، وتمكّن على إثر ذلك من طرد الإسبان من تولوز ونيس، وبالرغم من كونه كان على قيد الحياة لم يشر إليها في مذكراته، ولعله كان قد فرغ من كتابتها قبل خروجه لغزو فرنسا. وبتاريخ 4 جويلية 1546 توفي خير الدين بربروس، وقد ناهز الثمانين من عمره المبارك. ودفن في إسطنبول بمحاذاة مضيق البوسفور بباشكتاش، في نفس المكان الذي اشتراه بنفسه وأوقفه لكي يدفن فيه، كما أشار إلى ذلك في موضع سابق من هذه المذكرات.

الملاحق

وهي مجموعة صور ووثائق نادرة جاء ذكرها في الكتاب أحببنا إطلاع القارئ الكريم عليها تتميما للفائدة .



اللوحة الأولى من مخطوطة مكتبة جامعة إستانبول رقم 2490.



اللوحة الأخيرة من مخطوطة مكتبة جامعة إستانبول رقم 2490.



اللوحة الأولى من مخطوطة مكتبة جامعة إستانبول رقم 94.

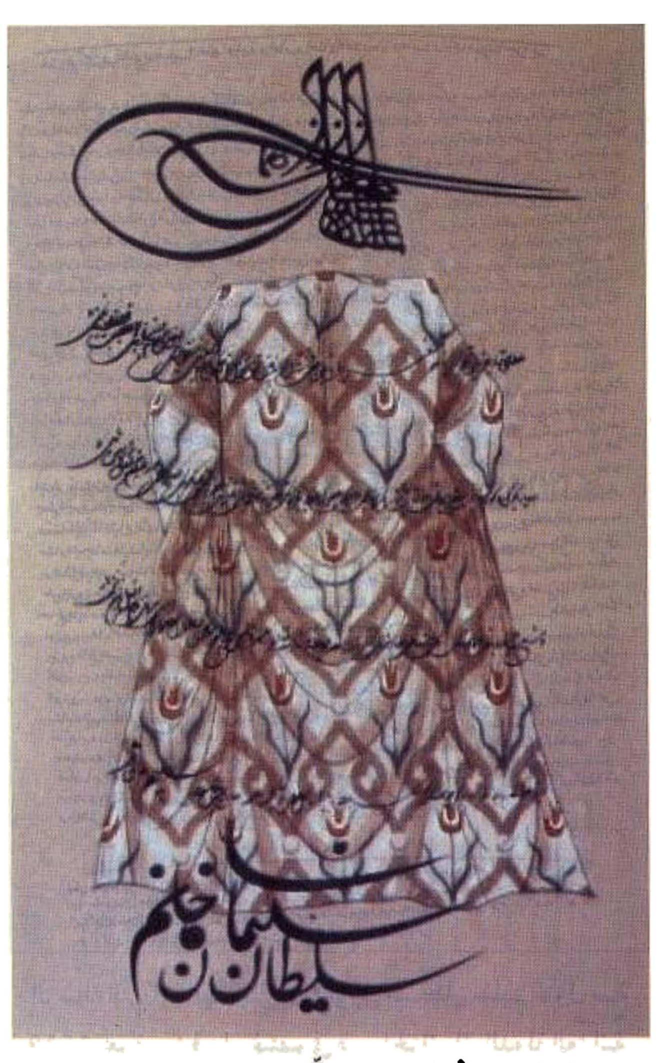


اللوحة الأولى من مخطوطة مكتبة جامعة إستانبول رقم 2459.

الرسالة التي أرسلها أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 يعرضون فيها رغبتهم في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية.

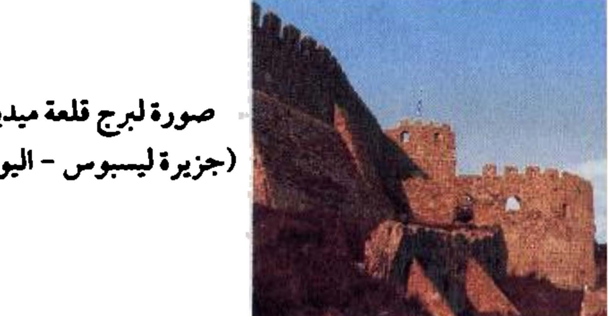
(أرشيف قصر طوب كابي سراي، إستانبول. **رقم: 6456**)

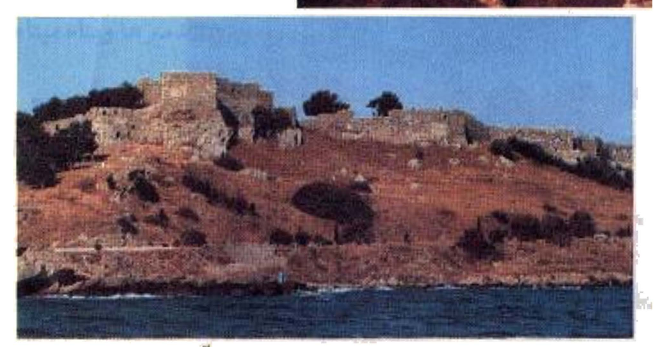
م- 3 -



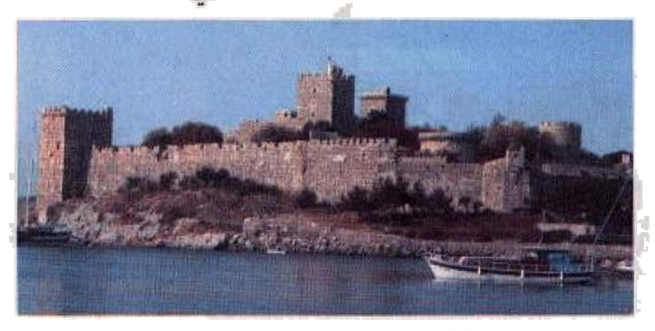
نموذج لفرمان (أمر) سلطاني موقّع بختم السلطان سليمان خان

صورة لبرج قلعة ميديلّي
(جزيرة ليسبوس - اليونان)





صورة خارجية لقلعة ميديلّي



صورة خارجية لقلعة فرسان بودروم (جزيرة رودس - اليونان)



لوحة تمثّل قاعة الاستقبال الملكي بقصر طوب كابي سراي قديما



صورة لقاعة الاستقبال الملكي بقصر طوب كابي سراي حديثا



لوحة فنية تمثّل معركة پروزة (28 سبتمبر 1538)



مدينة الجزائر مطلع القرن 16 وعلى اليمين قلعة البنيون التي بناها الإسبان لمراقبة المدينة قام خير الدين بربروس بتدميرها وبناء ميناء الجزائر على أنقاضها



نموذج لسفينة قادرغة التي أهداها السلطان سليمان القانوني لخير الدين بربروس



مجسم لسفينة من نوع قادرغة عليها رايات خير الدين بربروس (متحف البحرية العثمانية بإستانبول)



قبر خير الدين بربروس في (ساحل باشكتاش) وهي قطعة الأرض التي اشتراها وأوقفها ليدفن فيها مثلما ذكر في مذكراته



قبر خير الدين بربروس في الوسط





قطعة فضية تذكارية صنعت في ألمانيا سنة 1533 وعليها صورة المجاهد خير الدين بربروس

محتويات الكتاب

شركة الأصالة للنشر والتوزيع
الجزائر العاصمة

تلفون : 21.762897 فاكس : 21.762157
جوال : 560.153010
E-mail : elassalah@hotmail.com

ELASSALA EDITION & DISTRIBUTION ALGER - ALGERIE